

هداية المريد لتحقيق معاني كتاب

تجريد التوحيد المفيد

للشيخ الإمام
تقي الدين أحمد بن علي المقرئ
المتوفى عام ٨٤٥ من الهجرة

نقحه وعلق عليه وضبطه
أحمد بن محمد طاحون

وملحق به فصل بعنوان

عبادة واستعانة

ما يخص من كتاب مدارج السالكين للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية
المتوفى عام ٧٥١ من الهجرة

مكتبة التراث الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٤ من الهجرة
عام : ١٩٩٣ من الميلاد



مكتبة التراث الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجديدُ في هذه الطبعة:

* كتابة مقدمة للتعريف بالكتاب والمؤلف
* وضع عناوين جزئية لتفصيل بين كل فكرة وأخرى، وليكون ذلك أسرَّ على القارئ وهو يتابع الكتاب.

* كتابة تعليقات وتفسيرات لزيادة الإيضاح، ويجدُّها القارئ في ذيل الصفحات وقد رُمز لها بما يلي (*/*/*/*) وهكذا.. وفي آخر كل تعليق يجدُّ الرمز (طاء).. تمييزاً لها عن حواشي دار الطباعة النيرية والرموز لها بالأرقام (١، ٢، ٣).. حفاظاً على نسبة جهدهم الطيب إليهم.

* ضبط كلمات الكتاب بالشكل للتيسير على القارئ في صحَّة النطق، وإدراك المعاني بسهولة.
* تعيين أسماء السور وأرقام الآيات الواردة في الكتاب في ذيل الصفحات ومرموز لها بالأرقام.
* تصحيح ما سها عنه طابع الكتاب من سنوات عديدة مضت (أى فى القرن الرابع عشر من الهجرة).. أما طبعتنا هذه، ففي العقد الثاني من القرن الخامس عشر

* إضافة تسمية جديدة وهى: - «هداية المريد لتحصيل معانى كتاب تجريد التوحيد المفيد»
* إضافة فصل جديد بعنوان (عبادة واستعانة).. من كتاب (تهذيب مدارج السالكين) الذى كتبه الإمام «شمس الدين بن قيم الجوزية»... المتوفى عام ٧٥١ من الهجرة.. وهذه:

عبد المنعم صالح العلى العزى (فى القرن الرابع عشر من الهجرة).
* وسيجدُّ القارئ مدى ترسُّم المقرئى خطى سلفه ابن قيم الجوزية، وقد آثرت اختيار النص من التهذيب رعاية للاختصار، وسيجدُّ القارئ فى النص المختار كل ما يحتاج إليه للمقارنة وتثبيت ما يحصله من قراءة كتاب «تجريد التوحيد المفيد».

اللَّهُمَّ اجْعَلْ غَايَتَنَا مَرْضَاتَكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

عنوانُ هذا الكتاب :

«تجريدُ التوحيدِ المفيدِ» ، وكلمةُ «المفيدِ» هنا مجرورة صفةً لكلمة «التوحيد» .
والمقصودُ بكلمةِ التجريدِ هنا : التنقيةُ والتخليصُ . . أى إنَّ المعنى : هذا بيانُ
التوحيدِ المفيدِ صاحبِهِ يومَ الدينِ ، وتخليصُهُ فى هذا الكتابِ من كلِّ شائبةٍ
من شوائبِ الشركِ وكدرِ الشكِّ ، وتنقيتهُ ممَّا علقَ به فى أذهانِ كثيرٍ من
الناسِ وعوامِهِم أتباعًا لأهواءِ المغرضينَ ، والمبتدعينَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
وأبعدَهُم عن طريقِ النَبِيِّ ﷺ وأصحابِهِ الأبرارِ ، فأدخلُوا على التوحيدِ ما
لا يَتَّفِقُ مع إخلاصِ كَلِمَةِ (لا إلهَ إلا اللهُ) وما تتطلبُهُ من الإذعانِ لأمرِهِ
ونهيهِ سبحانه وتعالى ، ومن قَصْدِ وجهِ الكريمِ بالعبادةِ والدعاءِ
والاستعانةِ والتَّوَكُّلِ والخَوْفِ والرَّجاءِ وعدمِ اتِّخَاذِ الوَسْطَاءِ بينَ العَبْدِ
وَرَبِّهِ ، والإيمانِ بِأنَّهُ سبحانه خالقُ كلِّ شَيْءٍ ، وأنَّ لَهُ كَمَالَ الْقُدْرَةِ
والْحِكْمَةِ والعِلْمِ ، وأنه لا نِدَّ لَهُ ، ولا شَرِيكَ ، ولا وَلَدَ ، ولا صاحِبَةَ .
وجردَ المُقْرِيزِ نَفْسَهُ فى هذا الكتابِ مُفَنِّدًا بِالدَّلِيلِ والْبُرْهَانِ ما عليه
أهلُ الزَّيْغِ مع اختلافِ مَذَاهِبِهِم وانحِرَافَاتِهِم . . سواءٌ فيما يتعلقُ بالذاتِ
العَلِيَّةِ والصفاتِ . . أو ما يَتَّصِلُ بالإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ والمُعْتَقَدَاتِ ، مُتَّبَعًا فى
ذلك نَورَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ . . ثُمَّ خَطَى أَهْلُ الْعِلْمِ المُحَقِّقِينَ مِمَّنْ سَبَقُوهُ .
خُصُوصًا الإِمَامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ . . جَزَاهُمَا اللهُ خَيْرًا .

(١) الكتاب :

«تجريد التوحيد المفيد» رسالة قيمة من مؤلفات العلامة الفقيه المؤرخ/ تقى الدين أحمد المقرئى ، والنسخة التى أشرفت على إخراجها والتعليق عليها ، «إدارة الطباعة المنيرية» بالقاهرة ، وتقع فى (٤٨) صفحة ، هى التى كانت الأساس للطبعة التى أقدمها فى ثوبها الجديد.

قرأت هذه الرسالة فوجدتها عظيمة الفائدة ، وقد امتازت بحسن العرض ، وسهولة العبارة ، ودقة الأفكار ، وصحة المعانى ، ووضوح المقاصد .. إن المقرئى يسير فى هذه الرسالة على منهج أهل السنة فى توضيح عقيدة التوحيد الخالص النقي من كل شائبة من شوائب الشرك ، وقد ظهر حرص المؤلف على التوجيه الرشيد ، وعلى سلامة عقيدة المؤمن من المزالق ، والشبه التى تفسد عليه صحة يقينه ، وضرب لذلك أمثلة ، بين بها بعض الأحوال التى توقع المرء فى شرك الشرك ، وتناقض حقيقة العبودية لله عز وجل .

وثمة خطوة رائعة فى هذه الرسالة نحن فى أشد الحاجة إلى الالتفات إليها ، خصوصا فى عصرنا الحاضر ، هذه الخطوة هى تحذيراته من النظر إلى الإسلام وشرائعه وتعاليمه من زاوية واحدة ، والركون إليها ، وإغفال سائر ما جاء به هذا الدين العام الشامل لخير الناس جميعا . إن الإسلام دستور حياة كامل ، تؤدى فرائضه ويحافظ المؤمن على سننه ويلتزم آدابه ، وفضائله . فمع صحة الاعتقاد وأداء الفرائض ، يكون المؤمن رحيما ، سخيا ، بارا ، متسامحا ، عطوفا ، ذاكرا لله عز وجل صادقا ، كافا جوارحه عن معاصى الله ، مراعيًا حقوق الآخرين .. مجتنبًا

الشرّ والسوء وإلحاق الأذى بالناس ، ساعياً في الخير ما استطاع . . وعلى سبيل المثال يقول المقریزی :

«من الناس من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العباد ، وكلٌّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ على غير مُرادِهِ . . ومنهم من يَمَكُثُ في خلواته تاركًا الجمعة . . ومنهم من يجعل الزهد في الدنيا غاية كلِّ عبادة ورأسها ، ومن هؤلاء فريقٌ يجمع القلب على ذكر الله ويترك الفرائض والواجبات ، أو يؤدي الفرائض ويترك السنن والنوافل ، ويعلم العلم النافع لجمعيته . . ومن الناس من يشتغل بالنفع المتعدّي ، كخدمة الفقراء ، وقضاء حوائج الناس ، ويرون أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك . . فهؤلاء وأمثالهم أهلُ التبعيدِ المقيّد الذي يأخذ الواحدُ منهم وجهًا ويُهْمِلُ ماعداه من أوامر الله تعالى ، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه ، يرى نفسه كأنه نقص ، ونزّلَ عن عبادته . . فهو يعبد الله على وجه واحد» .

ثمَّ يشيرُ المقریزی إلى أصحابِ التَّعْبُدِ المطلق ، الذين يقتدون برسول الله ﷺ وينظرون إلى الإسلام وعبادته نظرةً شاملةً ، ولا يقصرون نظرهم على أمرٍ دون أمرٍ . . فيقول بعد أن ضرب لهم أمثلة :

«وصاحبُ التَّعْبُدِ المطلق ليس له غَرَضٌ في تعبدٍ بعينه يُؤثِّره على غيره ، بل غرضه تَتَبُّعُ مرضاةِ الله تعالى» أي تراه معَ العلّماء ، ومعَ الذّاكرين ، ومعَ المتصدّقين ، ومعَ المجاهدين ، ومع أصحابِ المروءاتِ والكرّم ، وهو يؤدي الفرائض ، ويجتهدُ في السننِ والنوافل ، وفي وقتِ حلولِ العبادة والأوقات والأحوال الفاضلة يُفرِّغُ القلبَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ يَخَالِطُ النَّاسَ في خَيْرٍ ، وَيَعْتَزِلُ دُعاةَ الشرِّ والفسادِ .

أَيُّ هُوَ مَعَ دِينِهِ وَأَوَامِرِهِ ، مُجْتَنِبًا نَوَاهِيهِ ، سَاعِيَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ،
وَنَفْعِ النَّاسِ مَا اسْتَطَاعَ .

وَضَرَبَ الْمُقْرِيزِيُّ أَمْثَلَةً مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لِلتَّبَصِيرِ وَالتَّنْوِيرِ
كَيْلَا يَأْخُذَ الْمَرْءُ دِينَهُ مِنْ زَاوِيَةٍ يَتَشَدَّدُ فِيهَا ، وَيَتْرُكُ سَائِرَ مَا جَاءَ بِهِ لِبَعْثِ
الْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ لِلتَّحَلِّيِ بِكُلِّ جَمِيلٍ وَخَيْرٍ ، وَالتَّخَلِّيِ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ
وَشَرٍّ .

إِنَّ الْمُقْرِيزِيَّ بِهَذَا التَّنْبِيهِ يَعِيشُ مَعَ أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ مِنَ
الْإِسْلَامِ زَاوِيَةً يَلْزَمُونَهَا وَيُضَيِّقُونَ مَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُهْمِلُونَ سَائِرَ
مَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَيْهِ وَالْعَمَلُ بِهِ ، وَيَنْدَفِعُونَ نَحْوَ الْأَمْرِ مِنْ زَاوِيَةٍ
وَاحِدَةٍ يُمْلِيهَا عَلَيْهِمْ ضِيقُ الْفِكْرِ ، وَعَدَمُ الْوَعْيِ الصَّحِيحِ بِسَبِيلِ مُعَالَجَةِ
الْإِسْلَامِ لِلْأُمُورِ مُرَاعِيَا الْأَحْوَالَ وَالْأَزْمَانَ وَالطَّبَائِعَ وَالْحَقُوقَ الْمُتَعَدِّدَةَ ،
وَمُرَاعِيَا الْحِفَاطَ عَلَى سَلَامَةِ الْأُمَّةِ مِنَ الْفِتْنَةِ ، إِذِ الشَّرُّ طَبَقَاتٌ بَعْضُهَا أَشَدُّ
مِنْ بَعْضٍ ، وَهَذِهِ أُمُورٌ تَحْتَاجُ إِلَى فِطْنَةِ الْفَقِيهِ ، وَذَكَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، مِمَّا
يُسَاعِدُ عَلَى كِبْحِ جِمَاحِ الْمُنْدَفِعِينَ عَلَى غَيْرِ هِدَايَةِ رَشِيدَةٍ .

اُكْتَفَى بِهَذِهِ الْإِشَارَاتِ ، وَأَقْدَمَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ فِي ثَوْبِهَا الْجَدِيدِ الَّذِي
يَجْعَلُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ أَكْثَرَ يَسْرًا وَسَهُولَةً عَلَى الْقَارِئِ . . خُصُوصًا عَوَامَ
الْمُتَّقِينَ وَالشَّبَابِ ، وَسَيَرَى كُلُّ مَنْ يَقْرُوهَا أَوْ يَسْمَعُهَا مِنْ غَيْرِهِ مُتَدَبِّرًا أَنَّ
الْمُقْرِيزِيَّ . . جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا . . يَقْدِمُ خِدْمَةَ عَظِيمَةً ، وَمَنْفَعَةً لَا غِنَى لِأَحَدٍ
عَنْهَا ، لِأَنَّ الْعَقِيدَةَ إِذَا سَلِمَتْ ، وَالطَّرِيقَةَ إِذَا اسْتَقَامَتْ عَلَى مَنْهَجِ رَشِيدٍ
وَصَحِيحٍ ، فَأُبَشِّرُ بِالسَّلَامَةِ وَالطَّمَانِينَةِ وَالنَّجَاةِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ .

وَقَدْ أَلْحَقْتُ بِهَا فَصْلًا مُخْتَصَرًا مِنْ كِتَابِ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» لِلْإِمَامِ
ابْنِ قَيِّمٍ الْجَوْزِيِّ ، تَحْتَ عُنْوَانِ «عِبَادَةٌ وَاسْتِعَانَةٌ» ، وَهُوَ يُسَاعِدُ فِي

تَثْبِيتِ مُعْظَمِ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، وَتَرَى مِنْهُ تَأَثُّرَ الْمُقْرِيزِيِّ بِسَلَفِهِ
الْعَظِيمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٢) الْمُؤَلَّف :

عَالِمٌ مِصْرِيٌّ مِنْ أَصْلِ لُبْنَانِيٍّ ، وَهُوَ : تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ
عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُقْرِيزِيِّ . . . وَلِدَ بِالْقَاهِرَةِ بِحَيِّ الْجَمَالِيَّةِ (حَارَةِ
بَرْجَوَانَ) عَامَ ٧٦٦ مِنْ الْهَجْرَةِ (١٣١٤ مِنْ الْمِيلَاد) وَمَاتَ بِهَا عَامَ ٨٤٥
مِنْ الْهَجْرَةِ كَمَا جَاءَ فِي الضُّوءِ اللَّامِعِ لِلِسَّخَاوِيِّ ، وَفِي الْأَعْلَامِ لِلزَّرْكَلِيِّ .
قَالَ السَّخَاوِيُّ : وَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّهِ أَنَّ تَصَانِيفَهُ زَادَتْ عَلَى مَائَتَيْ مُجَلَّدَةٍ
كَبَارٍ ، وَأَنَّ شَيْوَحَهُ بَلَغَتْ سِتْمِائَةَ نَفْسٍ ، وَكَانَ الْمُقْرِيزِيُّ مُوَلَّعًا بِالتَّارِيخِ
وَلَهُ فِي تَارِيخِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بَاعٌ طَوِيلٌ .

ثم بعد هذه المقدمة يبدأ من الصفحة التالية كتاب «تجريد التوحيد المفيد»
جزى الله مؤلفه خير الجزاء وأثابه .

أسأل الله عز وجل أن ينفع به إنه سميع مجيب .

أحمدُ بن محمد طاحون

العالية من كُتَيْبَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

«جامعة الأزهر الشريف»

١٣٧٥ من الهجرة

١٩٥٥ من الميلاد

جدة في عام ١٤١٤ من الهجرة

١٩٩٣ من الميلاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . .

أَمَّا بَعْدُ ، فَهَذَا كِتَابٌ جَمُّ الْفَوَائِدِ ، بَدِيعُ الْفَرَائِدِ ، يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَرَادَ اللَّهَ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ . . سَمَّيْتُهُ «تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ الْمُفِيدِ» ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ الْعَوْنَ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بِمَنْنِهِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَالِكُهُ وَإِلَهُهُ :

حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ

فِي مَعْنَى الرَّبِّ :

فَالرَّبُّ مَصْدَرُ رَبٍّ يَرْبُ رَبًّا فَهُوَ رَابٌّ : فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ رَابُّ الْعَالَمِينَ ، فَإِنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمَوْجِدُ لِعِبَادِهِ ، الْقَائِمُ بِتَرْبِيَّتِهِمْ وَإِصْلَاحِهِمْ ، الْمُتَكَفِّلُ بِصَلَاحِهِمْ مِنْ خَلْقٍ وَرِزْقٍ وَعَافِيَةٌ وَإِصْلَاحٌ دِينٍ وَدُنْيَا .

فِي مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ :

وَالْإِلَهِيَّةُ كَوْنُ الْعِبَادِ يَتَّخِذُونَهُ سُبْحَانَهُ مَحْبُوبًا مَالُوهَا وَيُفْرِدُونَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْإِخْبَاتِ وَالتَّوْبَةِ وَالنَّذْرَ وَالطَّاعَةَ وَالطَّلَبَ وَالتَّوَكُّلَ ، وَنَحْوِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ . فَإِنَّ التَّوْحِيدَ حَقِيقَتُهُ أَنْ تَرَى الْأُمُورَ كُلَّهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رُؤْيَةً تَقْطَعُ الْاِلْتِفَاتَ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ ، فَلَا تَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَّا مِنْهُ تَعَالَى ، وَهَذَا الْمَقَامُ يَشْمَرُ التَّوَكُّلَ وَتَرْكَ شِكَايَةِ الْخَلْقِ وَتَرْكَ لَوْمَتِهِمُ وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِ .

وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ وَالتَّأَلُّهُ مِنْ عِبَادِهِ لَهُ سُبْحَانَهُ ، كَمَا أَنَّ الرَّحْمَةَ هِيَ الْوَصْلَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَزَّ وَجَلَّ .

بيان أن للتوحيد قشرين

للتوحيد قشران:

واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدرًا توحيد الله تعالى . . غير أن التوحيد له قشران: الأول: أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ، ويسمى هذا القول توحيدًا ، وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى ، وهذا التوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يخالف سره جهره ، والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به ، وهذا هو توحيد عامة الناس .
لباب التوحيد وما يخرج عنه:

ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى ، ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط وأن يعبد سبحانه عبادة يفرد بها ولا يعبد غيره . ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى . . فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (١) .

وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبد ، إنما عبد هواه ، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى ، ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم ، فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه . وهذا التوحيد مقام الصديقين .

توحيد الربوبية لأبد معه من توحيد الإلهية:

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون ، بل أقرؤا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض ، والقائم بمصالح العالم كله ،

وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ كَمَا قَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (١). فَلَمَّا سَوَّوْا غَيْرَهُ بِهِ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ كَانُوا مُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٢).
 وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ مُبَايَنَةِ الشَّرِكِ فِي تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَنَّهُ تَعَالَى حَقِيقٌ بِإِفْرَادِهِ وَلِيًّا وَحَكَمًا وَرَبًّا. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ (٣) وَقَالَ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ (٤) وَقَالَ: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا﴾ (٥).

الْفَرْقُ بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ

مَنْ عَدَلَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ:

فَلَا وَلِيَّ وَلَا حَكَمَ وَلَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي مَنْ عَدَلَ بِهِ غَيْرُهُ فَقَدْ أَشْرَكَ فِي أُلُوهِيَّتِهِ ، وَلَوْ وَحَدَ رُبُوبِيَّتُهُ ، فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْخَلَائِقُ ، مُؤْمِنُهَا وَكَافِرُهَا ، وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مَفْرُقُ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَلِهَذَا كَانَتْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَوْ قَالَ لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ لَمَّا أَجْزَأَهُ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ ، فَتَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنَ الْعِبَادِ. وَلِهَذَا كَانَ أَصْلُ «اللَّهُ» الْإِلَهَ ، كَمَا هُوَ قَوْلُ سَيِّوِيهِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ وَهُوَ قَوْلُ جَمْهُورِ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا مِنْ شَذٍّ مِنْهُمْ.

وَبِهَذَا الْاِعْتِبَارِ الَّذِي قَرَّرْنَا بِهِ الْإِلَهَ (*) ، وَأَنَّهُ الْمَحْبُوبُ لِاجْتِمَاعِ صِفَاتِ

(١) البقرة: ١٦٥ (٢) الأنعام: ١ (٣) الأنعام: ١٤ (٤) الأنعام: ١١٤ (٥) الأنعام: ١٦٤

* قَرَّرْنَاهُ، أَي فَرَّغْنَاهُ بِمَعْنَى الْإِلَهَ، وَأَنَّهُ أَصْلُ لَفْظِ الْجَلَالَةِ «اللَّهُ»، كَمَا قَالَ سَيِّوِيهِ وَاخْتَارَهُ الْمُقْرِيزِيُّ، وَالْإِلَهِيَّةُ تَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَعْبُودِ، فَمَنْ أَثْبَتَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوَقَّفَ فِي إِثْبَاتِ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ فِي عِبَادَةٍ أَوْ دَعَاءٍ أَوْ تَوَكُّلٍ أَوْ رَجَاءٍ وَخَوْفٍ، فَقَدْ صَارَ مُشْرِكًا وَلَا يَنْفَعُهُ تَوْحِيدُهُ الرُّبُوبِيَّةَ «طَاء»

الكمال فيه كان الله هو الاسم الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وهو الذي يُنكره المشركون ويحتجُّ الربُّ سبحانه وتعالى عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيده ألوهيته ، كما قال الله تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَ اللَّهِ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَ لَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (١)

وكُلَّمَا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ آيَاتِهِ جُمْلَةً مِنَ الْجُمَلِ قَالَ عَقِبَهَا ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ﴾ فإبان سبحانه وتعالى بذلك أَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا كَانُوا يَتَوَقَّفُونَ فِي إِثْبَاتِ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ لَا الرَّبُّوبِيَّةِ عَلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ فِي الرَّبُّوبِيَّةِ كَمَا يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وبالجُمْلَةِ فَهُوَ تَعَالَى يَحْتَجُّ عَلَى مُنْكَرِ الْإِلَهِيَّةِ بِإِثْبَاتِهِمُ الرَّبُّوبِيَّةَ . وَالْمَلِكُ هُوَ الْأَمْرُ النَّاهِي الَّذِي لَا يَخْلُقُ خَلْقًا بِمُقْتَضَى رَبُّوبِيَّتِهِ وَيَتْرَكُهُمْ سُدًى مُعْطَلِينَ لَا يُؤْمَرُونَ وَلَا يُنْهَوْنَ ، وَلَا يَثْبُونُ وَلَا يُعَاقِبُونَ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ النَّاهِي الْمُعْطَى الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ .

الرَّبُّ وَالْمَلِكُ وَالْإِلَه :

ولذلك ، جَاءَتْ الاستعاذةُ فِي سُورَةِ النَّاسِ وَسُورَةِ الْفَلَقِ بِالأَسْمَاءِ الْحُسْنَى الثَّلَاثَةِ ، الرَّبِّ وَالْمَلِكِ وَالْإِلَه ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كَانَ فِيهِ إِثْبَاتٌ أَنَّهُ خَالِقُهُمْ وَفَاطَرُهُمْ ، فَبَقِيَ أَنْ يُقَالَ ، لَمَّا خَلَقَهُمْ هَلْ كَلَّفَهُمْ وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاَهُمْ ؟ قِيلَ نَعَمْ ، فَجَاءَ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فَأُثِّبَتِ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ . ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (٢) . فَلَمَّا قِيلَ ذَلِكَ ، قِيلَ ، فَإِذَا كَانَ رَبًّا مُوَجِّدًا وَمَلِكًا مُكَلِّفًا ، فَهَلْ يُحِبُّ وَيُرْغَبُ إِلَيْهِ ، وَيَكُونُ

التَّوَجَّهْ إِلَيْهِ غَايَةَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ. قِيلَ: ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ ، أَيْ مَالُوهُمْ وَمَحْبُوبِهِمُ الَّذِي لَا يَتَوَجَّهُ الْعَبْدُ الْمَخْلُوقُ الْمُكَلَّفُ الْعَابِدُ إِلَّا لَهُ، فَجَاءَتْ الْإِلَهِيَّةُ خَاتِمَةً وَغَايَةً وَمَا قَبْلَهَا كَالْتَوِطُّةِ لَهَا.

أدلة الجمهور في سحر النبي ﷺ وأدلة مخالفه (١)

أعظم عوذة في القرآن:

وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وهو حين سحر النبي ﷺ وخيل إليه أنه يفعل الشيء ﷺ وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يوماً كما في الصحيح (١).

وكانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة فأُنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية، فأنحلت بكل آية عقدة وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله، وهو المعبود وحده لاجتماع صفات الكمال فيه ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا المرغوب إليه في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه، ثم استحب التعليق باسم الإله في جميع المواطن التي يقال فيها (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لأن اسم الله تعالى هو الغاية للأسماء.

(١) وهو في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها «قالت سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة: أشعرت أن الله أفناني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه، قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً فأمر بها فدفت» هذا لفظ =

ولهذا كان كلُّ اسمٍ بعدهُ لا يُعرَفُ إلاَّ بهُ ، فتقولُ اللهُ هو السَّلامُ المؤمنُ
 المهيمُنُ، فالجلالةُ تُعرَفُ غيرها، وغيرها لا يُعرَفُها:
 والذينَ أشركوا به تعالى في الربوبيةِ منهم مَنْ أثبتَ معه خالقًا آخرَ وإنْ
 لم يَقولوا إنه إلهٌ مُكافئٌ لَهُ وَهُمْ المُشْرِكُونَ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنَ القَدَرِيَّةِ:
 وَرُبُوبِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَالَمِ الربوبيةُ الكاملةُ المطلقةُ الشاملةُ تُبطلُ أقوالَهُمْ،

= البخارى: وقد اختلف العلماء فى سحر النبى صلى الله عليه وآله وسلم قديما وحديثا
 فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ووقوعه وأنه لا يخالف العصمة فلا ينافى الحديث قوله
 تعالى (والله يعصمك من الناس) لأن سحر النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان من
 جنس ما كان يعتريه صلى الله عليه وآله وسلم من الأسقام والأوجاع وهو مرض من
 الأمراض وإصابته به كإصابته بالسَّم لا فرق بينهما يدل له قوله صلى الله عليه وآله وسلم
 فى آخر الحديث «قد عافانى الله» قال ابن القيم فى الهدى قال القاضى عياض والسحر
 مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه صلى الله عليه وآله وسلم كأنواع
 الأمراض مما لا ينكر ولا يقدر فى نبوته. وأما كونه يخیل إليه أنه فعل الشئ ولم يفعله
 فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلة فى شئ من صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته
 من هذا وإنما هذا فيما يجوز طُروُهُ عليه فى أمر دنياء التى لم يبعث لسيبها ولا فُضِّلَ من
 أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر فغير بعيد أنه يخیل إليه من أمور ما لا حقيقة
 له ثم ينجلي عنه كما كان: فكان غاية هذا السحر فيه صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو
 فى جسده وظاهر جوارحه لافى عقله وقلبه. ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخیل إليه بل
 يعلم أنه خيال لاحقيقة له: ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض: وقد ذهب طائفة من
 المتقدمين إلى أنه لا يجوز ذلك عليه صلى الله عليه وآله وسلم وأن هذا نقص فى حقه
 صلى الله عليه وآله وسلم وعيب وهو ينافى قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) ومن
 المتأخرين الشيخ محمد عبده المصرى وأطنب القول فى رد سحر النبى صلى الله عليه وآله وسلم
 وسلم ونفيه فى تفسيره جزء عم: وحاصل كلامه فيه: ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه
 عليه السَّلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله ليس من قبيل
 تأثير الأمراض فى الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية
 بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح، وهو مما يصدق قولُ المشركين فيه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
 مَسْحُورًا﴾ وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله وخيل إليه أن شيئا يقع وهو
 لا يقع، فيخیل إليه أنه يوحى إليه ولا يوحى إليه. والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به
 وأنه كتابُ اللهِ بالتواترِ عن المعصومِ صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الذى يجبُ =

لأنَّها تقتضى ربوبيته لجميع مافيه (*) من الذوات والصفات والحركات والأفعال .

وحقيقة قول القَدَرِيَّةِ المجوسِيَّةِ أَنَّهُ تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان ولا تتناولها ربوبيته (**)، إذ كيف يتناول ما لا يدخل تحت قُدْرَتِهِ ومشيئته وخلقه .
بيان أن شِرْكَ الأُمَمِ كُلِّهِ نوعان

بيان للشِرْكَ فى العبادة:

وَشِرْكَ الأُمَمِ كُلِّهِ نَوْعَانِ: شِرْكَ فى الإلهية ، وشِرْكَ فى الربوبية . .
فالشِرْكَ فى الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك ، وهو شِرْكَ

= الاعتقاد بما يُشْبِهُ وعدمُ الاعتقاد بما يَنْفِيهِ ، وقد جاءَ بنفى السحر عنه عليه السلام حيث نسبَ القولُ بإثباتِ حُصولِ السَّحْرِ لَهُ إلى المشركين أعدائه ، وبيَّحَهُمْ على زَعْمِهِمْ هذا ، فإذا هوَ ليسَ بمسحورٍ قطعاً . وأما الحديثُ ، فعلى فرضِ صحَّته ، آحاد ، والآحادُ لا يُؤْخَذُ بها فى بابِ العقائد . وعصمةُ النَبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فى تأثيرِ السحرِ فى عقله عقيدة من العقائد لا يُؤْخَذُ فى نفيها عنه إلَّا باليقين ، ولا يجوزُ أن يُؤْخَذَ فيها بالظنِّ والمُظَنُّونَ على أن الحديثَ الذى يصلُّ إلينا من طريقِ الآحادِ إنما يحصلُ الظنُّ عندَ من صحَّ عنده . أمَّا من قامتَ لَهُ الأدلَّةُ على أَنَّهُ غيرُ صحيحٍ فلا تقومُ به عليه حُجَّةٌ ، وعلى أىِّ حال ، فلنا بلُّ علينا ، أن نُفَوِّضَ الأمرَ فى الحديثِ ولا نُحْكِمَهُ فى عقيدتنا ونأخذَ بنصِّ الكتابِ وبديلِ العقل ، فإنَّه إذا خولطَ النَبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فى عقله كما زَعَمُوا ، جازَ عليه أن يَظُنَّ أَنَّهُ بَلَغَ شيئاً وهو لم يبلِّغه أو أن شيئاً نزلَ عليه ولم ينزلَ عليه . والأمرُ ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى بيان . هـ : والمسألةُ فى ذاتها محلُّ بحثٍ ، وقد تركَ كثيرٌ من المنتسبين إلى المذاهبِ الآخذِ ببعضِ الأحاديثِ التى وردت فى صحيح البخارى أو مُسلم أو غيرهما ، لقولِ إمامِ لهم فى المذهبِ أو لمخالفتها القياسَ فما هنا أولى لدفعِ شبهِ المُلْحِدينَ وغيرهم وموافقةِ للقرآنِ القطعى فى ذلك . وإذا علمتَ هذا تعلمُ أن مذهبَ إليه المُصَنِّفُ هو قول الجمهور : والله أعلم

(*) أى : لجميع مافى العالم - بفتح اللام - يعنى لكلِّ المخلوقات ، علوها وسُفْلِها (طاء)

(**) الهاء فى (ولا تتناولها) راجعة إلى أفعالِ الحيوانِ قَبْلَها (طاء)

عِبَادِ الْأَصْنَامِ وَعِبَادِ الْمَلَائِكَةِ وَعِبَادِ الْجِنِّ وَعِبَادِ الْمَشَائِخِ وَالصَّالِحِينَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ الَّذِينَ قَالُوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١) وَيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ، وَيَنَالُنَا بِسَبَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ لَهُمْ قُرْبٌ وَكَرَامَةٌ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَصُولِ الْكَرَامَةِ وَالزُّلْفَى لِمَنْ يَخْدُمُ أَعْوَانَ الْمَلِكِ وَأَقَارِبَهُ وَخَاصَّتَهُ. وَالْكَتُبُ الْإِلَهِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تُبْطَلُ هَذَا الْمَذْهَبَ وَتَرُدُّهُ وَتُقْبِحُ أَهْلَهُ وَتَنْصُرُ عَلَى أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَمِيعُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بِسَبَبِ هَذَا الشِّرْكِ وَمِنْ أَجْلِهِ: وَأَصْلُهُ الشِّرْكَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ تَعَالَى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٢)، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَهُ كَمَا يُحِبُّهُ، فَقَدْ اتَّخَذَ نَدًّا مِنْ دُونِهِ، وَهَذَا عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْآيَةِ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ اللَّهَ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٣)، وَالْمَعْنَى عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ فَيَسُوونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْحُبِّ وَالْعِبَادَةِ: وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ فِي النَّارِ لِأَصْنَامِهِمْ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إِذْ نُسَوِّيَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤) وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ هَذِهِ التَّسْوِيَةَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ رَبَّهُمْ وَخَالِقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ مُقَرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَأَنَّ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ: وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.

(١) الشعراء : ٩٧ و ٩٨

(٢) البقرة : ١٦٥ (٣) الأنعام : ١

(٤) الزمر : ٣

التسوية في المحبة والعبادة.. شرك لا يغفر:

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجاه وذل له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير الله أثره عنده وأحب إليه وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله، فإذا كان المسمى بين الله وبين غيره في ذلك مُشركًا فما الظن بهذا. فعيادًا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه مسلم موحد فهذا أحد أنواع الشرك. والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه يُبطل هذا الشرك ويدحض حُجج أهله، وهي أكثر من أن يحيط بها إلا الله... بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمر به، فخلقُه وأمرُه وما فطر عليه عباده وركبهُ فيهم من القوى شاهد بأنه الله(*) الذي لا إله إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين تقدس وتعالى.

وواعجبًا كيف يعصى الإله * أم كيف يجحده الجاحدُ

ولله في كل تحريكة * وتسكينة أبدًا شاهدُ

وفي كل شيء له آية * تدلُّ على أنه واحدُ

الشرك في الربوبية أحبُّ شرك:

والنوع الثاني من الشرك، الشرك به تعالى في الربوبية كشرك من جعل معه خالقًا آخر كالمجوس وغيرهم الذين يقولون بأن للعالم ربين، أحدهما

(*) في الأصل جاء: بأن الله الذي لا إله إلا هو ولعل ما أثبتناه أوضح في الدلالة على المراد (والله أعلم)

خالقُ الخير ، ويقولونَ له بلسانِ الفارسيَّةِ «يَزْدَان»^(١) ، والآخرُ خالقُ الشرِّ ويقولُ له المجوسُ بلسانهم «أَهْرَمَنْ» . وكالفلاسفةِ وَمَنْ تَبِعَهُمُ الَّذِينَ يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحدٌ بسيطٌ وأن مصدرَ المخلوقاتِ كُلِّها عن العقولِ والنفوسِ ، وأنَّ مصدرَ هذا العالمِ عن العقلِ الفعَّالِ ، فهو ربُّ كلِّ ماتحتِه ومدبِّرُه ، وهذا أشْرُ من شركِ عبَادِ الأصنامِ والمجوسِ والنصارى ، وهو أخبثُ شركٍ فى العالمِ ، إذ يتضمَّنُ من التعطيلِ وجحدِ الإلهيةِ والربوبيةِ واستنادِ الخلقِ إلى غيره سبْحانَه وتعالى ما لم يتضمَّنهُ شركُ أمةٍ من الأممِ . وشركُ القَدَرِيَّةِ مُختَصَرٌ من هذا ، وبابٌ يدخلُ منه إليه . ولهذا شَبَّهَهُمُ الصحابةُ رضى اللهُ عنهم بالمجوسِ ، كما ثبت عن ابنِ عمرَ وابنِ عباسٍ رضى اللهُ عنهم ، وقد رَوَى أهلُ السُّنَنِ فيهم ذلكَ مرفوعاً عنهم مجوسُ هذه الأمة^(٢) ، وكثيراً ما يجتمعُ الشُّركَانِ فى العبدِ وينفردُ أحدهما عن الآخرِ ، والقرآنُ الكريمُ ، بل الكتبُ المنزَّلَةُ من عندِ الله تعالى كُلُّها مُصرِّحَةٌ بالردِّ على أهلِ هذا الإشراكِ ، كقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنه ينفى شركَ المحبَّةِ والإلهيةِ ، وقوله ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه ينفى شركَ الخلقِ والربوبيةِ .

(١) وقوله : يزدان - معناه (الله) : وقوله : أهرمن أى الشيطان .

(٢) لفظ رواية ابنِ عمرَ عند أبى داود وغيره «عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : القَدَرِيَّةُ مجوسُ هذه الأمة ، إن مَرَضُوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» قال الخطابى فى شرح هذا الحديث فى المعالم ، إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذاهبِ المجوس فى قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة ، يزعمون أن الخيرَ من فعلِ النور والشرَّ فعلِ الظلمة ، وكذلك القَدَرِيَّةُ يضيفون الخيرَ إلى الله والشرَّ إلى غيره ، والله سبْحانَه وتعالى خالقُ الخيرِ والشرِّ لا يكونُ شَيْءٌ منهما إلا بمشيئته ، وخلقهُ الشرَّ شراً فى الحكمة كخلقه الخيرَ خيراً ، فإن الأمرين جميعاً مضافان إلىه ، خلقا وإيجادا وإلى الفاعلين لهما فعلاً واكتساباً اهـ . وقال الحافظُ المُنْذَرِيُّ هذا منقطع أبى حازم سلمة بن دينار لم يسمع من ابنِ عمرَ ، وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابنِ عمرَ ليس منها شيء ثبت . اهـ . وقد تعقبه الحافظُ بن حجر وقال هذا الحديث حسنه الترمذى وصححه الحاكم ورجاله من رجال الصحيح : والله أعلم .

تفسيرٌ لتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَلْفَاظِ وَالْإِرَادَاتِ:

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي الْعِبَادَةِ وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِشْرَاكُ غَيْرِهِ مَعَهُ لَا فِي الْأَفْعَالِ وَلَا فِي الْأَلْفَاظِ وَلَا فِي الْإِرَادَاتِ، فَالشِّرْكُ بِهِ فِي الْأَفْعَالِ كَالسُّجُودِ لَغَيْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالطَّوَافُ بِغَيْرِ بَيْتِهِ الْمَحْرَمِ؛ وَحَلَقِ الرَّأْسِ عِبُودِيَّةً وَخُضُوعًا لَغَيْرِهِ، وَتَقْبِيلِ الْأَحْجَارِ غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ يَمِينُهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ أَوْ تَقْبِيلِ الْقُبُورِ وَاسْتِلَامِهَا وَالسُّجُودَ لَهَا^(١).

النهى عن اتخاذ القبور مساجد:

وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ مَنْ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ يُصَلِّي فِيهَا. فَكَيْفَ مَنْ اتَّخَذَ الْقُبُورَ أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يَحْذَرُ مَا صَنَعُوا»^(٢)، وَفِيهِ عَنْهُ أَيْضًا «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ تُذَرِّكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»^(٣)، وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ»، وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ ابْنِ حَبَانَ عَنْهُ صَلَّى

(١) خَرَجَ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ مِنْ حَدِيثِ فَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ جَرِيحٍ يَقُولُ، حَدَّثَنِي عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لَا تَوَضَّعُ النَّوَاصِي إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى فِي حُجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَمُتْلَةٌ» قَالَ أَبُو نَعِيمٍ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الْفَضِيلِ لَمْ نَكْتُبْهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَاهُ أَيْضًا الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

(٣) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لَعَنَ اللَّهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمَتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»^(١) ، وقال: «اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» ، وقال «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ أَوْلَتْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»^(٢).

أقسامُ النَّاسِ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ:

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ (أَعْنَى زِيَارَةِ الْقُبُورِ) ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قَوْمٌ (*) يَزُورُونَ الْمَوْتَى فَيَدْعُونَ لَهُمْ وَهَذِهِ هِيَ الزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ (***) ، وَقَوْمٌ يَزُورُونَهُمْ يَدْعُونَ بِهِمْ (***) فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ ، وَقَوْمٌ يَزُورُونَهُمْ فَيَدْعُونَهُمْ أَنْفُسَهُمْ (***) وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ فِي الرَّبُّوبِيَّةِ ، وَقَدْ حَمَى

(١) رَوَاهُ أَيْضًا أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(*) قَوْمٌ: بِالرَّفْعِ عَلَى الْاِسْتِنَافِ ، أَي: مِنْهُمْ قَوْمٌ ، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مِنْهُمْ مَحْذُوفٌ ، وَجُمْلَةُ يَزُورُونَ صِفَتُهُ ، أَوْ أَوَّلُهُمْ قَوْمٌ فَتَقَعُ خَبَرًا لِأَوَّلِهِمْ مَرْفُوعٌ ، وَقَوْمٌ بِالرَّفْعِ فِي الْقِسْمَيْنِ التَّالِيَيْنِ بِالْعَطْفِ عَلَى الْأُولَى (طَاء).

(**) يَدْعُونَ لَهُمْ: أَيْ يُلْقُونَ السَّلَامَ عَلَى دَارِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ) ثُمَّ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ لِمَوْتَى الْمُؤَحِّدِينَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَهَذِهِ هِيَ الزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي رَغِبَ فِيهَا لِلْعِظَةِ وَالْاِعْتِبَارِ بِالْقُبُورِ وَأَهْلِهَا (طَاء).

(***) يَدْعُونَ بِهِمْ: أَيْ يَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ ، وَيَتَخَذُونَ الْمَوْتَى شَفْعَاءَ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَبِذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ نِدَاءً وَشَرِيكًا فِي الْوَهَيْتِهِ ، وَفِي مُحَبَّتِهِمْ لَهُ (طَاء).

(****) فَيَدْعُونَهُمْ أَنْفُسَهُمْ: أَنْفُسَ هُنَا تَوْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ (الْهَاءِ) الْوَاقِعِ مَفْعُولٌ يَدْعُونَ ، وَالْمِيمُ فِي (هَمْ) عَلَامَةُ الْجَمْعِ ، أَيْ إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنَ الْمَوْتَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَلَبُهُ مِنَ اللَّهِ وَحَدِّهِ كَشَفَاءِ الْمَرِيضِ ، وَطَلَبِ الْبَرَكَةِ فِي الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ وَحَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ ، وَالَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ جَعَلُوا الْمَوْتَى أَرْبَابًا وَضَلُّوا بِذَلِكَ ضَلَالًا بَعِيدًا (طَاء)

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَانِبَ التَّوْحِيدِ أَعْظَمَ حِمَايَةَ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَتَّى نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ (*) لِكَوْنِهِ ذَرِيعَةً إِلَى التَّشْبِهِ بِعِبَادِ الشَّمْسِ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهَا فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ: وَسَدَّ ﷺ الذَّرِيعَةَ بِأَنْ مَنَعَ مِنَ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالصُّبْحِ لَا تَصَالِ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْجُدُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِمَا لِلشَّمْسِ.

السجود لغير الله :

وَأَمَّا السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ»، وَلَا يَنْبَغِي ^(١) فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ لِلَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْامْتِنَاعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ^(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ^(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ ^(٤)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾ ^(٥).

مِنَ الشُّرْكَ الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ:

وَمِنَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ تَعَالَى الْمَبَايِنَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الشُّرْكَ بِهِ فِي اللَّفْظِ كَالْحَلْفِ بِغَيْرِهِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»، صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَانَ. قَالَ ابْنُ حِبَانَ أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ وَسُفْيَانُ ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْجَعْفِيُّ (*) فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ: أَيْ وَقْتُ طُلُوعِ الشَّمْسِ حَتَّى تَرْتَفِعَ قَدَرُ رُمْحٍ أَوْ رُمْحَيْنِ ، وَوَقْتُ غُرُوبِهَا.

وَقَوْلُهُ (لِكَوْنِهِ) أَيْ لِكَوْنِ هَذَا الْعَمَلِ أَوْ هَذَا الشَّانِ
وَقَوْلُهُ (إِلَى التَّشْبِيهِ) كَمَا جَاءَ فِي الْأَصْلِ ، الْمَقْصُودُ بِهِ «إِلَى التَّشْبِهِ» وَقَدْ أُثْبِتَ بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ التَّشْبِيهِ (طَاء)

(١) قَوْلُهُ لَا يَنْبَغِي مُبْدَأُ خَبَرِهِ قَوْلُهُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ
(٢) مَرْيَمَ : ٩٢ (٣) يَسَ : ٦٩ (٤) الشُّعْرَاءُ : ٢١٠ ، ٢١١ (٥) الْفُرْقَانُ : ١٨

ثنا عبد الرحمن بن سليمان عن الحسن بن عبد الله النخعي عن سعيد ابن عبيدة قال كنت عند ابن عمر (رضي الله عنه) فحلف رجل بالكعبة فقال ابن عمر رضي الله عنه: «ويحك! لاتفعل، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول» من حلف بغير الله فقد أشرك». وصور من الإشراك نحذرهما:

ومن الإشراك قول القائل لأحد من الناس: ماشاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل (ماشاء الله وشئت)، فقال: «أجعلتني لله ندا؟ قل: ماشاء الله وحده»، هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾^(١)، فكيف بمن يقول: أنا متوكِّل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، وازن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين مانهى عنه ﷺ من ماشاء الله وشئت، ثم انظر أيها أفحش، يتبين لك أن قائلها^(*) أولى بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وبالجواب^(٢) من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان

(١) التكوير: ٢٨

(*) أن قائلها: أي قائل: أنا متوكِّل على الله وعليك، ونحو ذلك من العبارات الواردة أعلاه.. فمثل هذا الشخص بعيد عن إخلاص العباد لله وحده، إذ جعل له شريكا في التوكِّل عليه والاستعاذة به. وإذا أراد أن يوكل شخصا حيا في أمر دنيوي مقدور له قال: أنا متوكِّل على الله ثم عليك، باستخدام حرف العطف «ثم» الذي يشعر بالتراخي مع الترتيب. أما الواو، فهي لمطلق الجمع ولا تفيد ترتيبا. (طاء)

(٢) معطوف على قوله بالبعد يعني وأولى بالجواب الخ..

قد جعلَ رَسولَ اللهِ ﷺ نَدًّا (*) فهذا قد جعلَ من لا يُدانيهِ لِلَّهِ نَدًّا .
بيانُ لمعنى العِبادة:

وبالجُملة ، فالعِبادةُ المذكورةُ فى قولهِ تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هى السجودُ ،
والتوكلُ ، والإنابةُ ، والتقوى ، والخشيةُ ، والتَّوْبَةُ ، والنُّذُورُ ، والحلفُ ،
والتَّسْبِيحُ ، والتَّكْبِيرُ ، والتَّهْلِيلُ ، والتَّحْمِيدُ ، والاستغفارُ ، وحَلَقُ الرَّأْسِ
خُضُوعًا وتَعَبْدًا والدُّعاءُ . . كلُّ ذلكَ محضُ حقِّ اللهِ تعالى . وفى مُسندِ
الإمام أحمد «أن رجلا أتى به النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ قد أَذْنَبَ
ذَنْبًا، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى
مُحَمَّدٍ، فَقَالَ ﷺ: «عَرَفَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ». وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ
الْحَسَنِ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سُرَيْعٍ، وَقَالَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

تقسيم الشُّركِ إلى تعطيل وغيره وأقسامه

الشُّركُ فى الإراداتِ والنِّيَّاتِ:

وأما الشُّركُ فى الإراداتِ والنِّيَّاتِ، فَذلكَ البحرُ الَّذى لا ساحلَ لَهُ وَقَلَّ مَنْ
يَنْجُو مِنْهُ، فَمَنْ نَوَى بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللهِ تعالى فَلَمْ يَقُمْ بِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (***) فَإِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هى الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ التى أَمَرَ اللهُ
بِهَا عِبَادَهُ كُلَّهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهَا، وهى حَقِيقَةُ الإِسْلامِ ﴿وَمَنْ
يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

(*) وقولُهُ: وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ جَعَلَ رَسولَ اللهِ نَدًّا يعنى الرَّجُلُ الَّذى قَالَ لِرَسولِ اللهِ «ماشاءَ
اللهُ وَمَا شِئْتُ» ورَسُولٌ مَفْعُولٌ أَوَّلُ لِحَجَلٍ وفَاعِلُهُ ضَمِيرٌ مُسْتَرٌّ فِيهِ جَوَازًا يَعُودُ إِلَى «رَجُلٍ»
فى الْحَدِيثِ الْوَاردِ قَبْلَهُ (طاء).

(**) قوله : فَمَنْ نَوَى بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللهِ تعالى فلم يَقُمْ بِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ تعالى «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» معناه والله أعلم
أن من لم يخلص عمله لله وابتغى به معه غيره، فالحال والشأن أنه لم يقم بحقيقة العبودية الواجبة لله ،
المقتضية التجرد وإخلاص النية .

(١) آل عمران : ٨٥

فاسْتَمْسِكْ بِهَذَا الْأَصْلِ وَرَدَّ مَا أَخْرَجَهُ الْمُتَبَدِّعَةُ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَيْهِ (*) تُحَقِّقْ
 مَعْنَى كَلِمَةِ الْإِلَهِيَّةِ (**). فَإِنْ قِيلَ الْمُشْرِكُ إِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَ جَنَابِ اللَّهِ
 تَعَالَى وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يَنْبَغِي الدُّخُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ كَحَالِ
 الْمُلُوكِ. فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدِ الْاسْتِهَانَةَ بِجَنَابِ الرَّبُّوبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ
 وَقَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، وَإِنَّمَا أَعْبَدُ هَذِهِ الْوَسَائِطَ لِتَقْرِبَنِي إِلَيْهِ وَتَدْخُلَ بِي
 عَلَيْهِ ، فَهُوَ الْغَايَةُ ، وَهَذِهِ وَسَائِلُ (***) ، فَلِمَ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا
 لِسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِهِ ، وَمَخْلَدًا فِي النَّارِ وَمُوجِبًا لِسَفْكَ دِمَاءِ أَصْحَابِهِ
 وَاسْتِبَاحَةَ حَرِيمِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟ وَهَلْ يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ أَنْ يَشْرَعَ اللَّهُ تَعَالَى
 لِعِبَادِهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِالشُّفَعَاءِ وَالْوَسَائِطِ فَيَكُونُ تَحْرِيمُ هَذَا إِنَّمَا اسْتِفِيدَ
 بِالشَّرْعِ فَقَطْ أَمْ ذَلِكَ قَبِيحٌ فِي الشَّرْعِ ، وَالْعَقْلِ (****) يَمْنَعُ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ
 شَرِيعَةٌ مِنَ الشَّرَائِعِ؟ وَمَا السِّرُّ فِي كَوْنِهِ (*****) لَا يُغْفَرُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ

(*) إليه: أي تَرَدُّ مَا يَرُدُّ عَلَى لِسَانِ الْمُتَبَدِّعَةِ وَفِي كُتُبِهِمْ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ الْوَاردِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ،
 يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ تَوْجِيهَاتِ الْكِتَابِ وَمَعَ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ بَدْعٌ لَا تُقْبَلُ مِنْ
 صَاحِبِهَا، وَلَا يَجِدُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْخُسْرَانَ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَخْلَصَ وَتَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ
 (طاء)

(**) تحقّق معنى كلمة الإلهية ، هذه العبارة في الأصل: تستحق معنى الكلمة الإلهية ولعلّ
 ما أثبتناه أوضح . والله أعلم .

(***) وهذه وسائل: اسمُ الإشارة يَرْجِعُ إِلَى لَفْظِ «الْوَسَائِطِ» قَبْلَهُ، أَيْ وَسَائِلُ تَقَرُّبٍ إِلَى
 اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ إِلَى النَّفْسِ لِيُزَعِّزَ إِيْمَانَهَا بِكَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ،
 وَكَمَالِ سَمْعِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ فِي رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى وَسْطَاءٍ وَلَا إِلَى شُفَعَاءٍ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَهُمْ. (طاء).

(****) قوله: أم ذلك أي: اتخاذا الوسطاء والشفعاء بين العبد وربّه، وقوله «قبيح في
 الشرع والعقل» يجوز أن يكون «العقل» مرفوعاً على الاستئناف مبتدأ وخبره جملة «يمنع أن
 تأتي به شريعة من الشرائع» أي: والعقل يحكم بذلك أيضاً ، ولا يرضى بالوسطاء (طاء).
 (*****) في كونه لا يُغْفَرُ: الهاء الضمير تعود إلى هذا النوع أيضاً من الشُّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ

الذُّنُوبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

قُلْنَا الشِّرْكَ شِرْكَان. . شِرْكٌ يَتَعَلَقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ. وَأَمَّا الشِّرْكُ الثَّانِي ، فَهُوَ الَّذِي فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ فِيهِ وَأَشَرْنَا إِلَيْهِ الْآنَ ، وَسَنُشَبِّحُ الْكَلَامَ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

تَوْضِيحٌ لِلشِّرْكِ فِي الذَّاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ:

أَمَّا الشِّرْكُ الْأَوَّلُ فَهُوَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا شِرْكُ التَّعْطِيلِ ، وَهُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ، كَشِرْكِ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) ، وَقَالَ ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ (٣) ، وَالشِّرْكُ وَالتَّعْطِيلُ مُتَلَازِمَانِ ، فَكُلُّ مُشْرِكٍ مُعْطَلٌ ، وَكُلُّ مُعْطَلٍ مُشْرِكٌ ، لَكِنَّ الشِّرْكَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَصْلَ التَّعْطِيلِ بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمُشْرِكُ مُقَرًّا بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ مُعْطَلٌ حَقًّا التَّوْحِيدِ.

التَّعْطِيلُ أَصْلُ الشِّرْكِ وَمُفَسِّرٌ لَهُ:

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا هُوَ التَّعْطِيلُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ (*) أَحَدُهَا: تَعْطِيلُ الْمَصْنُوعِ عَنْ صَانِعِهِ ، الثَّانِي: تَعْطِيلُ الصَّانِعِ عَنْ كَمَالِهِ الثَّابِتِ لَهُ ، الثَّلَاثُ: تَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ. . وَمِنْ هَذَا شِرْكُ أَهْلِ الْوَحْدَةِ وَمِنْهُ شِرْكُ الْمَلَاحِدَةِ الْقَائِلِينَ بِقَدَمِ

(٣) غافر: ٣٦ و٣٧

(٢) الشعراء: ٢٣

(١) النساء: ٤٨

(*) وهو ثلاثة: الضمير (هو) راجع للتعطيل قبله، أى التعطيل ثلاثة أقسام. .

العالم وأبديته وأن الحوادث بأسرها مُستندة إلى أسبابٍ ووسائطٍ اقتضت إيجادها ، ويسمونُها العقولَ والنفوسَ ، ومنه شركٌ مُعطلَّةُ الأسماءِ والصفاتِ ، كالجهمية^(١) والقرامطةَ وغلاةِ المعتزلةِ .

توضيحٌ لشركٍ من جعلَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ :

النوعُ الثانى شركُ التمثيلِ ، وهو شركٌ من جعلَ معه إلهاً آخرَ ، كالنصارى فى المسيح ، واليهود فى عزيرَ ، والمجوس القائلين بإسنادِ حوادث الخير إلى النور وحوادث الشرِّ إلى الظلمة . وشركُ القدريَّةِ المجوسيةُ مُختصرٌ منه ، وهؤلاء أكثرُ مشركى العالمِ ، وهم طوائفُ جمَّةٍ منهم من يعبدُ أجزاءَ سَمَآوِيَّةٍ ، ومنهم من يعبدُ أجزاءَ أَرْضِيَّةٍ ، ومن هؤلاء من يزعمُ أنَّ معبودَهُ أكبرُ الآلهةِ ، ومنهم من يزعمُ أنَّ إلهَهُ مِنْ جُمْلَةِ الآلهةِ ، ومنهم من يزعمُ أنه إذا خَصَّهُ بعبادتهِ والتَّبَتُّلِ إليه أَقْبَلَ إِلَيْهِ واعتنى به ، ومنهم من يزعمُ أنَّ معبودَهُ الأَدْنَى يُقَرِّبُهُ إِلَى الأَعْلَى الفوقانىِّ والفوقانىِّ يُقَرِّبُهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ حتى تُقَرِّبُهُ تِلْكَ الآلهةُ إِلَى اللهِ سبحانه وتعالى ، فتارةً تكثرُ الوسائطُ وتارةً تقلُّ .

فإذا عرفتَ هذه الطوائفَ وعرفتَ اشتدادَ نكيرِ الرسولِ ﷺ على مَنْ أشركَ به تعالى فى الأفعالِ والأقوالِ والإراداتِ كما تقدَّمَ ذِكرُهُ ، انفتحَ لك بابُ الجوابِ عن السؤالِ . فنقول : اعلمْ أنَّ حقيقةَ الشركِ تشبيهُ الخالقِ بالمخلوقِ ، وتشبيهُ المخلوقِ بالخالقِ .

(١) نسبة إلى جهم بن صفوان ، ظهرت بدعته بترمذٍ وقتله سالمُ بنُ أحوز المازنى بمرورٍ فى آخرِ مُلْكِ بنى أُمَيَّةَ : وأصلُ مَقَالَةِ التَّعْطِيلِ لِلصِّفَاتِ والأَسْمَاءِ مَاخُودٌ مِنْ تِلْمِذَةِ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضَلَالِ الصَّابِئِينَ . وَأَوَّلُ مَنْ حَفِظَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةُ فى الإسلامِ ، الجعدُ بنُ درهمَ ، وأخذها عنه الجهمُ بنُ صفوان وأظهرها ، فَتُسَبِّتُ إِلَيْهِ . قِيلَ إِنَّ الْجَعْدَ أَخَذَ مَقَالَتهُ بِالتَّعْطِيلِ عَنِ أَبَانِ بْنِ سَمْعَانَ ، وَأَخَذَهَا أَبَانٌ عَنْ طَالُوتَ بْنِ أَخْتِ لَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ ، الْيَهُودَى السَّاحِرِ .

أما الخالقُ فإنَّ المُشركَ شَبَّهَ المخلوقَ بالخالقِ فى خصائصِ الإلهية ، وهى التَّفَرُّدُ (*) بملكِ الضرِّ والنَّفعِ والعطاءِ والمنعِ ، فمنَ علَّقَ ذلكَ بمخلوقٍ فقد شَبَّهَهُ بالخالقِ تعالى وسَوَّى بين الترابِ وربِّ الأربابِ ، فأىُّ فُجورٍ وذنبٍ أعظمُ من هذا؟

من خصائصِ الإلهيةِ الكمالُ المطلقُ

ومنَ خصائصِ الإلهيةِ:

واعلمُ أنَّ منَ خصائصِ الإلهيةِ الكمالُ المطلقُ من جميعِ الوجوهِ الذى لا نَقْصَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ ، وذلكَ يوجبُ أن تكونَ العبادةُ له وحدهُ عقلاً وشرعاً وفطرةً ، فمنَ جعلَ ذلكَ لغيرِهِ ، فقد شَبَّهَ الغيرَ بمنَ لاشبِيهَ له ، ولشِدَّةِ قُبْحِهِ وتَضَمُّنِهِ غايةِ الظُّلْمِ ، أخبرَ منَ كَتَبَ على نفسه الرحمةَ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ أبداً ، ومنَ خصائصِ الإلهيةِ ، العبوديةُ التى لا تقومُ إلا على ساقِ الحبِّ والذلِّ ، فمنَ أعطاهُما لغيرِهِ ، فقد شَبَّهَهُ باللَّهِ سُبْحَانَهُ وتعالى فى خالصِ حقِّهِ ، وقُبْحُ هذا مُسْتَقَرٌّ فى العقولِ والفطرِ ، لكنَّ لما غيَّرتُ الشياطينُ فِطْرَ أَكْثَرِ الخلقِ واجتالَتْهُمُ عن دينِهِم وأمرَتْهُمُ أن يَشْرِكُوا باللَّهِ ما لم ينزِّل به سُلْطَاناً - كما روى ذلكَ عنِ اللّهِ أَعْرَفُ الخلقِ به وبِخَلْقِهِ - عَمُوا عن قُبْحِ الشُّرْكِ حتَّى ظنُّوه حَسَنًا (***) ، ومنَ خصائصِ الإلهيةِ السُّجودُ ، فمنَ سَجَدَ لغيرِهِ فقد شَبَّهَهُ به ، ومنها التَّوَكُّلُ ، فمنَ تَوَكَّلَ

(*) وهى التَّفَرُّدُ: الضميرُ هى يعود إلى خصائصِ الإلهيةِ قبله ، أى : وخصائصِ الإلهيةِ التَّفَرُّدُ بملكِ الضرِّ والنَّفعِ . الخ.

(**) قوله - كما روى ذلكَ عنِ اللّهِ أَعْرَفُ الخلقِ به وبِخَلْقِهِ - جملةٌ معترضةٌ لامحلِّ لها من الإعرابِ ، وأَعْرَفُ الخلقِ باللَّهِ هو رسولُ اللّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو يشيرُ بذلكَ إلى الحديثِ الذى أوردَ مضمونه قبل هذه العبارةِ وقوله «عموا عن قبحِ الشُّرْكِ . . الخ» متصلٌ بالكلامِ الذى بعد الاستدراكِ فى قوله : «لكنَّ لما غيَّرتُ . . الخ» (طاء)

على غيره فَقَدْ شَبَّهَ بِهِ ، ومنها التَّوْبَةُ ، فمن تَابَ لغيره فَقَدْ شَبَّهَ بِهِ ،
ومنها الحَلْفُ باسمه فمن حلفَ بغيره فَقَدْ شَبَّهَ بِهِ . ومنها الذَّبْحُ لَهُ ، فمن
ذَبَحَ لغيره فَقَدْ شَبَّهَ بِهِ . ومنها حَلَقُ الرَّأْسِ . . إلى غير ذلك .
من تشبَّهَ بِاللَّهِ قَصَمَهُ اللَّهُ :

هذا فى جانب التشبيه ، وأما فى جانب التشبُّه ، فمن تعاظَمَ وتكَبَّرَ
ودعا الناسَ إلى إطرائه ورجائه ومخافته فَقَدْ تشبَّهَ بِاللَّهِ ونازَعَهُ فى ربوبيته
وهو حقيقٌ بأن يهينهَ اللَّهُ غَايَةَ الهوانِ ، ويجعله كالذَّرِّ تحتَ أَقدامِ خلقه
وفى الصحيح عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْعِظْمَةُ إِزَارَى ،
والكبرياءُ ردائي ، فمن نازَعَنى فى واحدٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُه » ^(١) . وإذا كان
المصوِّرُ الذى يصنعُ الصُّورَ بيده من أَشدِّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ لتشبُّهه
باللَّهِ فى مجرَّدِ الصَّنعةِ ، فما الظَّنُّ بالمشبَّهِ باللَّهِ فى الربوبيةِ والإلهيةِ كما
قال ﷺ « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يومَ القيامةِ المصوِّرونَ يُقالُ لَهُمْ أَحْيُوا
ماخَلَقْتُمْ » ^(٢) وفى الصحيح عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ومن

(١) الحديثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ من روايةِ أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة بلفظ « قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم العزَّ إِزارُهُ والكبرياءُ رداؤُهُ ، فمن يَنازِعُنِي عَذَّبْتُهُ » ، ورواهُ البرقانى
فى مستخرجه من الطريق الذى أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ولفظه « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِزَارَى
والكبرياءُ ردائي فمن نازَعَنى شيئاً مِنْهُمَا عَذَّبْتُه » . ورواهُ أيضاً أبو داود وابنُ ماجة وابنُ
حبان فى صحيحه من حديثِ أبى هريرة بلفظ « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
قال الله تعالى : الكبرياءُ ردائي والعظْمَةُ إِزَارَى فمن نازَعَنى واحداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فى
النارِ » : ومعنى نازَعَنى تَخَلَّقَ بِذلِكَ فى معنى المِشْراكِ : قال الخطابى فى المعالم معنى
هذا الكلام أن الكبرياءَ والعظْمَةَ صفتان لله سبحانه وتعالى واختصَّ بهما لا يُشْرِكُهُ أَحَدٌ
فيهما ولا يَنْبَغِي لمخلوق أن يتعاطاهما لأنَّ صفةَ المخلوق التواضعُ والتذللُ ، وضَرْبُ الرِّداءِ
والإِزارِ مثلاً فى ذلك ، يقولُ والله أعلم كما لا يُشْرِكُ الْإِنْسَانُ فى رداءه وإزاره ، فكذلك
لا يُشْرِكُنِي فى الكبرياءَ والعظْمَةَ مخلوق . والله أعلم .

(٢) الحديث فى الصحيحين « عن عبد الله بن عمر قال سمعتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله
وسلم يقول : إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يومَ القيامةِ المصوِّرونَ » ورواهُ النسائى أيضاً : وهذه =

أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» (١) ، فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما . وكذلك من تشبه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له كملك الملوك وحاكم الحكام وقاضى القضاة ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال «إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِشَاهَانَ شَاهٍ (ملك الملوك) لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ» . وفى لفظ «أَغْيَظُ رَجُلٌ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاكِ» (٢) .

التشبيه والتشبه هو حقيقة الشرك:

وبالجملة ، فالتشبيه والتشبه هو حقيقة الشرك ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه تعالى فإنه يخطئ لكونه شبهه به وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له . فالشرك منعه سبحانه وتعالى حقه فهذا قبيح عقلا وشرعا ، ولذلك لم يشرع ولم يغفر لفاعله .

اتخاذ الشفعاء إساءة بالغة :

واعلم أن الذى ظن أن الرب سبحانه وتعالى لا يسمع له أو لا يستجيب

= الرواية لا يرد عليها شيء . وفى رواية لمسلم «إن من أشد أهل النار يوم القيامة عذابا المصورون» وعليها يرد الإشكال النحوى من رفع اسم إن والجواب عنه : وفى الباب أحاديث كثيرة تفيد تحريم التصوير وعلة النهي ظاهرة . وقد بينا الحكم فى ذلك والرد على من أباحه من المنتسبين إلى العلم فى زماننا هذا فى تعليقنا على عمدة الأحكام ، فانظره . وقوله أحيوا ما خلقتكم أي اجعلوه حيوانا ذا روح ، وهذا الأمر يسمى أمر تعجيز . ومعنى خلقتكم قدرتم وصورتهم .

(١) الحديث فى الصحيحين مطولا عن أبي هريرة : وقوله «ومن أظلم» أي ولا أحد أظلم ممن قصد حال كونه يخلق أي يصنع . والذرة بفتح الذال المعجمة وتشديد الراء النملة الصغيرة . والغرض تعجيزهم تارة بخلق الجماد وأخرى بخلق الحيوان .

(٢) هو فى صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ تَسْمَى «مَلِكُ الْأَمْلاكِ» زَادَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي رَوَايَتِهِ «لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» قَالَ الْأَشْعَثِيُّ قَالَ سَفِيَانٌ مِثْلَ شَاهَانَ شَاهٍ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو عَنْ أَخْنَعَ فَقَالَ أَوْضَعُ .

له إلا بواسطة تُطْلَعُهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ تَسْأَلُ ذَلِكَ مِنْهُ فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنًّا
السَّوْءَ فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَوْ لَا يَسْمَعُ إِلَّا بِإِعْلَامِ غَيْرِهِ لَهُ وَإِسْمَاعِهِ
فَذَلِكَ نَفْيٌ لِعِلْمِ اللَّهِ وَسَمْعِهِ وَكَمَالِ إِدْرَاكِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْبًا .

وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَسْمَعُ وَيَرَى وَلَكِنْ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يُلَيْتُهُ وَيُعْطِفُهُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ
أَسَاءَ الظَّنَّ بِإِفْضَالِ رَبِّهِ وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ جُودِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ ، فَأَعْظَمُ
الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ ، وَلِهَذَا يَتَوَعَّدُهُمْ فِي كِتَابِهِ عَلَى
إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِهِ أَعْظَمَ وَعِيدَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا
السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١) ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿أَنْفَكَا هَذِهِ اللَّهُ تَرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أَيْ : فَمَا
ظَنُّكُمْ أَنْ يُجَازِيَكُمْ إِذَا عَبْدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَظَنَنْتُمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ فِي الْإِطْلَاعِ
عَلَى ضَرُورَاتِ عِبَادِهِ لِمَنْ يَكُونُ بَابًا لِلْحَوَائِجِ إِلَيْهِ وَتَحْوِ ذَٰلِكَ . وَهَذَا
بِخِلَافِ الْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْوَسَائِطِ ضَرُورَةً لِحَاجَتِهِمْ وَعَجْزِهِمْ
وَضَعْفِهِمْ وَقُصُورِ عِلْمِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ حَوَائِجِ الْمُسْطَرِّينَ . فَأَمَّا مَنْ لَا يَشْغَلُهُ
سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ ، وَسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ وَكُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ فَمَا
تَصْنَعُ الْوَسَائِطُ عِنْدَهُ ، فَمَنْ اتَّخَذَ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ ظَنَّ بِهِ
أَقْبَحَ الظَّنِّ ، وَمُسْتَحِيلٌ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ بَلْ ذَلِكَ يَمْتَنَعُ فِي الْعُقُولِ
وَالْفِطَرِ .

عَدَمُ جَوَازِ الْخُضُوعِ وَالتَّأَلُّهِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْخُضُوعَ وَالتَّأَلُّهُ الَّذِي يَجْعَلُهُ الْعَبْدُ لَتِلْكَ الْوَسَائِطِ قَبِيحٌ فِي
نَفْسِهِ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمَجْعُولُ لَهُ ذَلِكَ عَبْدًا لِلْمَلِكِ الْعَظِيمِ

(٢) الصَّافَّاتُ : ٨٦ و ٨٧

(١) الْفَتْحُ : ٦

الرَّحِيمِ الْقَرِيبِ الْمُجِيبِ وَمَمْلُوكًا لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (١) أَيِ إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَأْتِي أَن يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكَهُ فِي رِزْقِهِ ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِي مِّنْ عِبِيدِي شُرَكَاءَ فِيمَا أَنَا مُنْفَرِدٌ بِهِ وَهُوَ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْبَغِي لِغَيْرِي وَلَا تَصْلُحُ لِسِوَايَ ، فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَمَا قَدَرْنِي حَقَّ قَدْرِي ﴿٢﴾ وَلَا عَظَّمَنِي حَقَّ تَعْظِيمِي ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَمَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٣﴾ مِّنْ عَبْدٍ مَّعَهُ مَنَ ظَنَّ أَنَّهُ يُوصِلُ إِلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاستَمْعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ (٢) الْآيَةُ . . . إِلَى أَنْ قَالَ ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣) ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤)

فَمَا قَدَرَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنَ أَشْرَكَ مَعَهُ الضَّعِيفَ الذَّلِيلَ ﴿٢﴾

أَصْلُ ضَلَالِ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ:

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ جَمِيعَ طَوَائِفِ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ وَجَدْتَ أَصْلَ ضَلَالِهِمْ رَاجِعًا إِلَى شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا الظَّنُّ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ ، وَالثَّانِي لَمْ يَقْدَرُوا الرَّبَّ حَقَّ قَدْرِهِ ، فَلَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ رَسُولًا وَلَا أَنْزَلَ كِتَابًا بَلْ تَرَكَ الْخَلْقَ سُدًى وَخَلَقَهُمْ عَبَثًا ، وَلَا قَدْرَهُ حَقَّ

(٤) الزمر: ٦٧

(٣) الحج: ٧٤

(٢) الحج: ٧٣

(١) الروم: ٢٨

﴿٢﴾ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أَيِ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ

﴿٣﴾ «فِي الْأَصْلِ (فَمَا قَدَرَ حَقَّ . . .) بِدُونِ الْهَاءِ

﴿٢﴾ الضَّعِيفَ الذَّلِيلَ: أَيِ الْمَخْلُوقِ حَيًّا كَانَ أَوْ مَيِّتًا، جَمَادًا كَانَ أَوْ حَيَوَانًا. فَجَمِيعُ الْخَلْقِ ضِعَافٌ إِذْلَاءٌ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يُحَقِّقُونَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِمْ (طَاء)

قَدْرُهُ مِنْ نَفْيِ عُمُومِ قُدْرَتِهِ وَتَعَلُّقِهَا بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ
وَأَخْرَجَهُمَا عَنْ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَلَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَضْدَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّهُ يُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلْهُ بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فَعْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
وَإِذَا اسْتَحَالَ فِي الْعُقُولِ أَنْ يُجْبَرَ السَّيِّدُ عَبْدَهُ عَلَى فَعْلٍ ثُمَّ يُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ
فَكَيْفَ يَصْدُرُ هَذَا مِنْ أَعْدَلِ الْعَادِلِينَ . وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ
الْقَدَرِيَّةِ الْأَذَلِّينَ ، وَلَا قَدْرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، مَنْ نَفَى رَحْمَتَهُ وَرِضَاهُ وَمَحَبَّتَهُ
وَغَضَبَهُ وَحِكْمَتَهُ مطلقًا وَحَقِيقَةً فَعْلُهُ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ فَعْلًا اخْتِيَارِيًّا ، بَلْ
أَفْعَالَهُ مَفْعُولَاتٍ مَنْفَصِلَةٌ عَنْهُ . وَلَا قَدْرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ جَعَلَ لَهُ صَاحِبَةً
وَوَلَدًا أَوْ جَعَلَهُ يَحِلُّ فِي مَخْلُوقَاتِهِ أَوْ جَعَلَهُ عَيْنَ هَذَا الْوُجُودِ . وَلَا قَدْرُهُ
حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمُلْكَ
وَوَضَعَ أَوْلِيَاءَ رَسُولِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْقَدْحِ فِي الرَّبِّ تَعَالَى
اللَّهُ عَنْ قَوْلِ الرَّافِضَةِ . وَهَذَا مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قَوْلِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ : إِنَّهُ أَرْسَلَ مَلَكًا ظَالِمًا فَادَّعَى النُّبُوَّةَ وَكَذَّبَ عَلَى اللَّهِ ، وَمَكَثَ زَمَنًا
طَوِيلًا يَقُولُ أَمْرُنِي بِكَذَا وَنَهَانِي عَنْ كَذَا وَيَسْتَبِيحُ دِمَاءَ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَحْبَائِهِ
وَالرَّبُّ تَعَالَى يُظْهِرُهُ وَيُؤَيِّدُهُ وَيُقِيمُ الْأَدْلَةَ وَالْمُعْجَزَاتِ عَلَى صِدْقِهِ وَيُقْبَلُ
بِقُلُوبِ الْخَلْقِ وَأَجْسَادِهِمْ إِلَيْهِ ، وَيُقِيمُ دَوْلَتَهُ عَلَى الظُّهُورِ وَالزِّيَادَةِ وَيُذِلُّ
أَعْدَاءَهُ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانِمِائَةِ عَامٍ . فَوَازَنَ بَيْنَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ وَقَوْلِ إِخْوَانِهِمْ مِنْ
الرَّافِضَةِ ، تَجِدُ الْقَوْلَيْنِ سَوَاءً ، وَلَا قَدْرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يُحْيِي
الْمَوْتَى وَلَا يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ لِيُبَيِّنَ لِعِبَادِهِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ .

عَابِدُ غَيْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ :

وَبِالْجُمْلَةِ ، فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَيْدَ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ

فَإِنَّمَا عَبْدٌ شَيْطَانًا. قَالَ تَعَالَى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ (١). فَمَا عَبْدٌ أَحَدٌ أَحَدًا مِنْ بَنِي آدَمَ كَائِنًا مِنْ كَانَ إِلَّا وَقَدْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ فَيَسْتَمْتَعُ الْعَابِدُ بِالْمَعْبُودِ فِي حُصُولِ غَرْضِهِ ، وَيَسْتَمْتَعُ الْمَعْبُودُ بِالْعَابِدِ فِي تَعْظِيمِهِ لَهُ وَإِشْرَاكِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ غَايَةُ رِضَى الشَّيْطَانِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يامُعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ (٢) أَيْ مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) فَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى السِّرِّ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ الشِّرْكَ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا يُغْفَرُ بِغَيْرِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ مُوجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ قُبْحَهُ بِمُجَرَّدِ النَّهْيِ عَنْهُ فَقَطْ ، بَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ عِبَادَةً إِلَّا غَيْرَهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَوْصَافَ كَمَالِهِ وَنُعُوتَ جَلَالِهِ.

تَقْسِيمُ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ الْإِسْتِعَانَةُ

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ:

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِسْتِعَانَةِ بِهِ أَقْسَامٌ: أَجْلُهَا وَأَفْضَلُهَا أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ عَلَيْهَا ، فَعِبَادَةُ اللَّهِ غَايَةُ مُرَادِهِمْ ، وَطَلَبُهُمْ مِنْهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَيْهَا وَيُوفِّقَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَا نَهَايَةُ مَقْصُودِهِمْ ، وَلِهَذَا كَانَ أَفْضَلُ مَا يُسْأَلُ الرَّبُّ تَعَالَى الْإِعَانَةَ عَلَى مَرْضَاتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّكَ فَلَا تَدْعُ أَنْ نَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ

عِبَادَتِكَ» (١) ، فَأَنْفَعُ الدُّعَاءُ طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ تَعَالَى : وَيُقَابِلُ هَؤُلَاءِ الْقِسْمُ الثَّانِي ، الْمُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ ، فَلَا عِبَادَةَ لَهُمْ وَلَا اسْتِعَانَةَ ، بَلْ إِنْ سَأَلَهُ تَعَالَى أَحَدُهُمْ وَاسْتَعَانَ بِهِ فَعَلَى حُظُوْظِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَسْأَلُهُ أَوْلِيَاؤُهُ وَأَعْدَاؤُهُ فَيَمْدُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَأَبْغَضُ خَلْقِ اللَّهِ إِبْلِيسُ ، وَمَعَ هَذَا أَجَابَ سُؤْلُهُ وَقَضَى حَاجَتَهُ وَمَتَّعَهُ بِهَا ، وَلَكِنْ لِمَا لَمْ تَكُنْ عَوْنًا عَلَى مَرْضَاتِهِ كَانَتْ زِيَادَةٌ فِي شِقْوَتِهِ وَبُعْدُهُ . وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ سَأَلَهُ تَعَالَى وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ عَوْنًا لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ كَانَ سُؤْلُهُ مَبْعَدًا لَهُ عَنِ اللَّهِ (**) فَلْيَتَدَبَّرِ الْعَاقِلُ هَذَا وَلْيَعْلَمْ أَنَّ إِجَابَةَ اللَّهِ لِسُؤَالِ بَعْضِ السَّائِلِينَ لَيْسَتْ لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ بَلْ قَدْ يَسْأَلُهُ عَبْدُهُ الْحَاجَّةَ فَيَقْضِيهَا لَهُ وَفِيهَا هَلَakُهُ ، وَيَكُونُ مَنْعُهُ مِنْهَا حِمَايَةً لَهُ وَصِيَانَةً ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ . وَالْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ .

الإكرام والإهانة بالتقوى أو عدمها:

وَعَلَامَةٌ هَذَا أَنَّكَ تَرَى مَنْ صَانَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَجْهَلُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ إِذَا رَأَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (**) يَقْضِي حَوَائِجَ غَيْرِهِ يُسِئُ ظَنَّهُ بِهِ تَعَالَى وَقَلْبُهُ

(١) خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَاحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَلَى مَا قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي كِتَابِهِ «بُلُوْغُ الْمَرَامِ مِنْ أُدَلِّهِ الْأَحْكَامِ» .

(**) أَيْ كَسُوَالِ إِبْلِيسَ ، فَقَدْ كَانَ سُؤْلُهُ اسْتِعَانَةً بِهِ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ عَوْنًا لَهُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ : ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (**) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿فَقَالَ إِبْلِيسُ : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾ [ص : ٧٩ ، ٨٣] ، فَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي شِقْوَةِ إِبْلِيسَ ، وَزِيَادَةً فِي بُعْدِهِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . (**) إِذَا رَأَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : الْهَاءُ فِي رَأَاهُ تَرْجِعُ إِلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ قَبْلُهَا ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَسْأَلُ رَبَّهُ حَاجَةً فَيَمْنَعُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهَا حِمَايَةً لَهُ وَصِيَانَةً مِنْ مَكْرُوهِ قَدْ يَقَعُ لَهُ لَوْ قَضَى لَهُ هَذِهِ الْحَاجَّةُ ، وَإِنْ بَعْضُ الْعِبَادِ يَجْهَلُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ وَيَرَى غَيْرَهُ تَجَابَ دَعْوَتِهِ فَلَقِصَرَ نَظْرُهُ يَسِئُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ، وَقَدْ يَسْخَطُ عَلَى الْأَقْدَارِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ (طَاء) .

مَحْشُوٌّ بِذَلِكَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ وَأَمَارَةٌ ذَلِكَ حَمْلُهُ عَلَى الْأَقْدَارِ وَعِتَابُهُ فِي الْبَاطِنِ لَهَا ، وَلَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى غَايَةَ الْكَشْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿ كَلَّا ﴾ (١). أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَتْهُ وَنَعَّمَتْهُ وَخَوَّلَتْهُ فَقَدْ أَكْرَمَتْهُ وَمَا ذَاكَ لِكِرَامَتِهِ عَلَى وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنِّي وَامْتِحَانٌ لَهُ أَشْكُرُنِي فَأُعْطِيَهُ فَوْقَ ذَلِكَ أَمْ يَكْفُرُنِي فَأَسْلُبُهُ إِيَّاهُ وَأُحَوِّلَهُ عَنْهُ لغيرِهِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ابْتَلَيْتُهُ فَضَيَّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَجَعَلْتُهُ بِقَدَرٍ لَا يَفْضُلُ عَنْهُ فَذَاكَ مِنْ هَوَانِهِ عَلَى وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ لَهُ مِنِّي ، أَيْ صَبْرٌ فَأُعْطِيَهُ أَضْعَافَ مَا فَاتَهُ أَمْ يَسْخَطُ فَيَكُونُ حَظُّهُ السُّخْطُ .

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ لَا يَدُورَانِ عَلَى الْمَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوسِّعُ عَلَى الْكَافِرِ لَا لِكِرَامَتِهِ وَيُقْتَرُ عَلَى الْمُؤْمِنِ لَا لِهَوَانِهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ يُكْرِمُ مِنْ عِبَادِهِ بَأَن يُوَفِّقَهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ . فغَايَةُ سَعَادَةِ الْأَبَدِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَيْهَا .

الْقِسْمُ الثَّالِثُ مَنْ لَهُ نَوْعُ عِبَادَةٍ بِلَا اسْتِعَانَةٍ . . وَهَؤُلَاءِ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا أَهْلُ الْقَدَرِ الْقَائِلُونَ : ﴿ ﴾ بِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ فَعَلَ بِالْعَبْدِ جَمِيعَ مَقْدُورِهِ مِنَ الْأَلْطَافِ وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي مَقْدُورِهِ إِعَانَةٌ لَهُ عَلَى الْفِعْلِ فَإِنَّهُ قَدْ أَعَانَهُ بِخَلْقِ الْأَلَاتِ وَسَلَامَتِهَا وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ ، وَإِرْسَالِ الرُّسُولِ وَتَمَكِينِهِ مِنَ الْفِعْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهَا إِعَانَةٌ مَقْدُورَةٌ يَسْأَلُهَا إِيَّاهَا ، وَهَؤُلَاءِ مَخْذُولُونَ

(١) الفجر : ١٥ : ١٧

﴿ ﴾ سِيلَقِي الْمَقْرِيزِي بَعْدَ قَوْلِهِ «أَهْلُ الْقَدَرِ الْقَائِلُونَ : ضُوءٌ عَلَى بَعْضِ مَعْتَقِدَاتِ الْقَدَرِيَّةِ مِمَّا أَبْعَدَهُمْ عَنِ السَّلَامَةِ وَعَنِ الصَّحَةِ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْمَقْصُودِ بِلَفْظِ «الْأَلَاتِ» فِي الْفَقْرَةِ : الْخَوَاسِ الثِّمَنِ هِيَ وَسَائِلُ الْإِدْرَاكِ وَالْفَهْمِ ، وَكَذَلِكَ الْجَوَارِحُ (طَاء) .

مُوكُولُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ مَسدودٌ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ الاسْتِعَانَةِ وَالتَّوْحِيدِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَكَذَّبَ بِقَدَرِهِ نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ.

النَّوعُ الثَّانِي: مَنْ لَهُمْ عِبَادَةٌ وَأُورَادٌ وَلَكِنْ حَظَّهُمْ نَاقِصٌ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ لَمْ تَتَّسِعْ قُلُوبُهُمْ لِارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْقَدَرِ ، وَأَنَّهَا بَدُونُ الْمَقْدُورِ كَالْمَوَاتِ الَّتِي لَا تَأْتِيرُ لَهُ بَلْ كَالْعَدَمِ الَّتِي لَا وُجُودَ لَهُ وَأَنَّ الْقَدَرَ كَالرُّوحِ الْمُحَرِّكِ لَهَا ، وَالْمَعُولَ عَلَى الْمُحَرِّكِ الْأَوَّلِ ، فَلَمْ تَنْفُذْ بَصَائِرُهُمْ مِنَ السَّبَبِ إِلَى الْمُسَبَّبِ وَمِنَ الْآلَةِ إِلَى الْفَاعِلِ (*) فَقَلَّ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْاسْتِعَانَةِ. وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ التَّصَرُّفِ بِحَسَبِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ وَنَصِيبٌ مِنَ الضَّعْفِ وَالْخِذْلَانِ بِحَسَبِ قَلَّةِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ وَلَوْ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ فِي إِزَالَةِ جَبَلٍ (يُرَادُ إِزَالَتُهُ) عَنْ مَكَانِهِ لِأَزَالِهِ.

بيان معنى الاستعانة

تفسير حقيقة الاستعانة عملاً :

فَإِنْ قِيلَ مَا حَقِيقَةُ الْاسْتِعَانَةِ عَمَلًا ؟ قُلْنَا هِيَ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالتَّوَكُّلِ وَهِيَ حَالَةُ الْقَلْبِ تَنْشَأُ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ

(*) الضمير في قوله: «وَأَنَّهَا بَدُونُ الْمَقْدُورِ» وفي قوله: «وَأَنَّ الْقَدَرَ كَالرُّوحِ الْمُحَرِّكِ لَهَا» يرجع إلى «الأسباب» الواردة في قوله «لِارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْقَدَرِ» في نفس الفقرة. ومعلوم أن الأسباب لا تؤدّي إلى الغاية المنشودة، ولا يتحقق بها الغرض المطلوب إلا إذا كان ذلك مُقَدَّرًا ومُرَادًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فهو خالق الأسباب والمسببات، وهذا ما يجب الإيمان به مع حسن التوكل على الله والاستعانة به سبحانه في كل الأمور صغيرها وكبيرها وهذا الفريق من العباد لم يربطوا بين السبب ومسببه سبحانه وتعالى، ولا بين الآلة كاليد واللسان ونحوهما وبين الفاعل الحقيقي الخالق لكل شيء بقدرته وحده، فهو سبحانه الذي يخلق الفعل إذا أراد إظهاره على يد عبد من عباده وليس للعبد إلا الاختيار والميل ، ولكن القدرة على الإيجاد لا تكون إلا بإقدار الله تعالى وإرادته ومشيتته فما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون (طاء).

والضرُّ والنفع وأَنَّهُ مَاشَاءَ كَانَ وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فتوجب اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وثقةً به ، فتصيرُ نسبةُ العبدِ إليه تعالى كَنِسْبَةِ الطِّفْلِ إلى أَبِيهِ فيما ينوبه من رغبته ورهبته ، فلو دهمهُ ماعسى أن يدهمه من الآفات لَمْ يَلْتَجِئْ إلى غيرهما . فَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ مَعَ هَذَا الْاعْتِمَادِ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى كَانَتْ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿ (١) ، أَى كَافِيهِ .

القسمُ الرابعُ : مَنْ لَهُ اسْتِعَانَةٌ بِإِلَاحَةِ عِبَادَةٍ ﴿ ﴾ وَتِلْكَ حَالُهُ مَنْ شَهِدَ تَقَرُّدَ اللَّهِ بِالضَّرِّ وَالنَّفْعِ وَلَمْ يَذَرِ بِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَاهُ فَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِي حُظُوْظِهِ فَأَسْعَفَهُ بِهَا سِوَاءُ كَانَتْ أَمْوَالًا أَوْ رِيَاسَاتٍ أَوْ جَاهًا عِنْدَ الْخَلْقِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَهَذَا لِعَاقِبَةٍ لَهُ ، فَذَلِكَ حُظُّهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ .

الإخلاصُ والاتباعُ بهما النجاةُ :

واعلمُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَكُونُ مُتَحَقِّقًا بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِأَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَالثَّانِي إِخْلَاصُ الْعِبُودِيَّةِ . وَالنَّاسُ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ

(١) الطلاق : ٢-٣

﴿ ﴾ يتلخص من هذا أن الناس في عبادة الله والاستعانة به أربعة أقسام هي :

١- أفضلها هم أهل العبادة والاستعانة بالله عليها وطلب عونه سبحانه على ما يحقق مرضاته من القول أو الفعل .

٢- المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة لهم ولا استعانة ولا يذكرون الله إلا عند حاجتهم الدنيوية .

٣- من له نوع عبادة ولا يستعينون بالله عليها ، وهما نوعان بينهما المؤلف .

٤- مَنْ لَهُ اسْتِعَانَةٌ بِإِلَاحَةِ عِبَادَةٍ ، فَهُوَ مُوقِنٌ بِأَنَّ اللَّهَ بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ قِيلُحُ بِالْإِعْدَاءِ يَطْلُبُ حَاجَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةَ غَافِلًا وَمُضَرِّفًا عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ ، فَهُوَ لِذَلِكَ مُحْرَمٌ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ ، إِنْ مَاتَ عَلَى هَذَا بِإِلَاحَةِ تَوْبَةٍ نَصُوحٌ . رَاجِعْ مَا جَاءَ عَنِ الْقِسْمِ الرَّابِعِ فِي صَفْحَةِ ٧١ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَتَوْضِيحٌ

هذه خلاصة للأقسام الأربعة التي بينها المؤلف ، والمؤمن حقا هو مَنْ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى طَاعَتِهِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْعَمَلِ الَّذِي يُحِبُّ وَيَرْضَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

على أربعة أقسام: الضرب الأول: أهل الإخلاص والمتابعة . . فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى لا يريدون من العباد جزاء ولا شكوراً ، عدوا الناس كأصحاب القبور لا يملكون ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فإنه لا يعامل أحداً من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق . والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملاً صواباً عارياً منه ، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت . قال الله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١) ، وقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢) ، وأحسن العمل إخلاصه وأصوبه . فالخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ ، وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾^(٣) ، وهو العمل الحسن في قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾^(٤) وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٥) ، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بُعداً من

(١) تبارك: ٢

(٢) الكهف: ٧

(٣) النساء: ١٢٥

(٤) الكهف: ١١٠

(٥) خرَّجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها بلفظ «قالت قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» وفي رواية لمسلم «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وأخرجه أيضاً أبو داود وابن ماجه: وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، فكل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله وكل من =

اللَّهُ تعالى (*) ، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى إِنَّمَا يُعَبِّدُ بِأَمْرِهِ لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ .
شَرَارُ الْخَلْقِ :

الضربُ الثاني : مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ لَهُ وَهَؤُلَاءِ شَرَارُ الْخَلْقِ
وَهُمُ الْمُتَزَيِّنُونَ بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ يُرَاءُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَهَذَا الضَّرْبُ يَكْثُرُ فِيمَنْ
انْحَرَفَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى الْفَقْهِ وَالْعِلْمِ وَالْفَقْرِ وَالْعِبَادَةِ
فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الْبِدْعَ وَالضَّلَالَ وَالرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحَمِّدُوا بِمَا لَمْ
يَفْعَلُوا . وَفِي أَضْرَابِ هَؤُلَاءِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا
آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحَمِّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

= أَدْحَثَ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلَيْسَ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، هَذَا مَنْطُوقُ
الْحَدِيثِ وَمَقْهُومُهُ كُلُّ عَمَلٍ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَهُوَ غَيْرُ مُرْدُودٍ . وَالْمَرَادُ بِأَمْرِهِ هَهُنَا دِينُهُ وَشَرْعُهُ ، وَفِيهِ
إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْعَامِلِينَ كُلَّهُمْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ تَحْتَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ فَتَكُونَ أَحْكَامُ
الشَّرِيعَةِ حَاكِمَةً عَلَيْهَا بِأَمْرِهَا وَنَهْيِهَا ، فَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ جَارِيًا تَحْتَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ مُوَافِقًا لَهَا
فَهُوَ مَقْبُولٌ وَمَنْ كَانَ خَارِجًا عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ مُرْدُودٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(*) أَيُّ كُلِّ عَمَلٍ عَلَى غَيْرِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا مُتَابَعَةٍ لَهُ وَلَا اقْتِدَاءٍ بِهِ فَهُوَ مُرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ ،
لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ هُوَ الْمُفَسِّرُ لِلشَّرِيعَةِ وَالْمُعَلِّمُ لَهَا بِأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا اتِّبَاعَهُ
وَالِاقْتِدَاءَ بِهِ ، وَقَدْ نَبَّهَ ﷺ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالْعِبَادَاتِ : « خُذُوا عَنِّي » ، وَعَلَى هَذَا
فَإِنَّ الْعَمَلَ الْمَقْبُولَ عِنْدَ اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَإِحْسَانِهِ هُوَ الَّذِي يَتَحَقَّقُ فِيهِ الْأَمْرَانِ : الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ، وَمُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ ، وَالسَّيْرُ عَلَى سُنَّتِهِ ﷺ (طَاء)

(١) آل عمران : ١٨٨

الْغُلُوُّ مَعَ عَدَمِ الْمُتَابَعَةِ يَضُرُّ الْعَابِدَ:

الضَّرْبُ الثَّالِثُ: مَنْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي أَعْمَالِهِ لَكِنَّهَا عَلَى غَيْرِ مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ، كَجُهَالِ الْعِبَادِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الزُّهْدِ وَالْفَقْرِ وَكُلِّ مَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ؛ وَالشَّأْنُ لَيْسَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَقْطًى، بَلْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَمَكُثُ فِي خَلَوَاتِهِ تَارِكًا لِلْجُمُعَةِ، وَيَرَى ذَلِكَ قُرْبَةً وَيَرَى مُوَاصَلَةَ صَوْمِ النَّهَارِ وَالْقِيَامِ بِاللَّيْلِ قُرْبَةً، وَأَنَّ صِيَامَ يَوْمِ الْفِطْرِ قُرْبَةً وَأَمْثَالَ ذَلِكَ(*) .

وَالرِّيَاءُ مُخِطٌ لِلْعِبَادَاتِ:

الضَّرْبُ الرَّابِعُ: مَنْ أَعْمَلُهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ، لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَطَاعَاتِ الْمُرَائِينَ، وَكَالرَّجُلِ يِقَاتِلُ رِيَاءً وَسُعْمَةً وَحَمِيَّةً وَشَجَاعَةً وَلِلْمَغْنَمِ، وَيَحُجُّ لِيُقَالَ، وَيَقْرَأُ لِيُقَالَ، وَيَعْلَمُ وَيُؤَلَّفُ لِيُقَالَ، فَهَذِهِ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ لَكِنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾ (١) فَلَمْ يُؤْمَرْ النَّاسُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ عَلَى الْمُتَابَعَةِ وَالْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَالْقَائِمُ بِهِمَا هُمُ أَهْلُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. صُورٌ مِنَ الْغُلُوِّ وَأَخْذِ الشَّرِيعَةِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ:

ثُمَّ أَهْلُ مَقَامِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لَهُمْ فِي أَفْضَلِ الْعِبَادَةِ وَأَنْفَعِهَا وَأَحَقُّهَا بِالْإِيثَارِ وَالتَّخْصِصِ أَرْبَعَةُ طُرُقٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ.

(*) وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْغُلُوِّ، وَقَالَ لِمَنْ أَرَادُوا: قِيَامَ اللَّيْلِ أَبَدًا، وَصَوْمَ الدَّهْرِ، وَالْعَزُوفَ عَنِ الزَّوْاجِ أَبَدًا، لِلتَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ، قَالَ لَهُمْ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ، وَبَيْنَ لَهُمْ أَنَّهُ مَعَ شِدَّةِ خَشْيَتِهِ لِلَّهِ: يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَنَامُ، وَيَصُومُ وَيُفْطِرُ، وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَلَمْ يَلْحَظْ عَنِ اتِّبَاعِ السُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِقَصْدِ الْغُلُوِّ وَتَحْمِيلِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ. (طَاء)

(١) الْبَيْتَةُ: ٥

أَهْلُ الْمَشَقَّةِ عَلَى النَّفْسِ:

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: عِنْدَهُمْ أَنْفَعُ الْعِبَادَاتِ وَأَفْضَلُهَا أَشَقُّهَا عَلَى النَّفْسِ وَأَصْعَبُهَا ، قَالُوا لِأَنَّهُ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ مِنْ هَوَايَا وَهُوَ حَقِيقَةُ التَّعَبِدِ ، وَالْأَجْرُ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ ، وَرَوَوْا حَدِيثًا لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا» أَيْ أَصْعَبُهَا وَأَشَقُّهَا ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَرْيَابُ الْمَجَاهِدَاتِ وَالْجَوْرِ عَلَى النَّفْسِ ، قَالُوا وَإِنَّمَا تَسْتَقِيمُ النَّفْسُ بِذَلِكَ ، إِذْ طَبَعُهَا الْكَسَلُ وَالْمَهَاوَنَةُ وَالْإِخْلَادُ إِلَى الرَّاحَةِ فَلَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا بِرُكُوبِ الْأَهْوَالِ وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ(*) .

أَهْلُ الزُّهْدِ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا:

الصَّنْفُ الثَّانِي: قَالُوا أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ وَأَنْفَعُهَا التَّجَرُّدُ وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّقَلُّلُ مِنْهَا غَايَةُ الْإِمْكَانِ وَاطِّرَاحُ الْإِهْتِمَامِ بِهَا ، وَعَدَمُ الْاِكْتِرَافِ لِمَا هُوَ مِنْهَا. عَوَامُ الزُّهَادِ وَخَوَاصُّهُمْ:

ثُمَّ هَؤُلَاءِ قَسَمَانِ: فَعَوَامُهُمْ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا غَايَةُ فَشَمَرُوا إِلَيْهِ وَعَمِلُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا: هُوَ أَفْضَلُ مِنْ دَرَجَةِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَرَأَوْا الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا غَايَةَ كُلِّ عِبَادَةٍ وَرَأْسَهَا ، وَخَوَاصُّهُمْ رَأَوْا هَذَا مَقْصُودًا لَغَيْرِهِ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِغْرَاقُ فِي مَحَبَّتِهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالِاسْتِغْثَالُ بِمَرْضَاتِهِ ، فَرَأَوْا أَفْضَلَ الْعِبَادَاتِ دَوَامَ ذِكْرِهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ثُمَّ هَؤُلَاءِ قَسَمَانِ ، فَالْعَارِفُونَ إِذَا جَاءَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ بِادْرَأَوْا إِلَيْهِ وَلَوْ فَرَّقَهُمْ وَأَذْهَبَ جَمْعَهُمْ ، وَالْمُنْحَرِفُونَ مِنْهُمْ يَقُولُونَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْقَلْبِ جَمْعِيَّتُهُ ، فَإِذَا جَاءَ مَا يَفْرُقُهُ عَنِ اللَّهِ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ:

يُطَالَبُ بِالْأَوْرَادِ مَنْ كَانَ غَافِلًا فَكَيْفَ بِقَلْبٍ كُلُّ أَوْقَاتِهِ وَرَدَ

(*) وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ: «هَلَكَ الْمُنْتَطَعُونَ» وَهُمْ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُتَشَدُّدُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشَدُّدِ (طَاء)

مِنْ آفَاتِ الْغُلُوِّ فِي اخْذِ الشَّرِيعَةِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ:

ثُمَّ هَؤُلَاءِ أَيْضًا قِسْمَانِ: مِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُ الْوَاجِبَاتِ وَالْفَرَائِضَ لْجَمْعِيَّتِهِ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُومُ بِهَا وَيَتْرُكُ السُّنَنَ وَالنَّوَافِلَ وَيَعْلَمُ الْعِلْمَ النَّافِعَ لْجَمْعِيَّتِهِ. وَالْحَقُّ أَنَّ الْجَمْعِيَّةَ حَظُّ الْقَلْبِ ، وَإِجَابَةُ دَاعِي اللَّهِ حَقُّ الرَّبِّ ، فَمَنْ آثَرَ حَقَّ نَفْسِهِ عَلَى حَقِّ رَبِّهِ فَلَيْسَ مِنَ الْعِبَادَةِ فِي شَيْءٍ.

أَهْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ وَالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي:

الصَّنْفُ الثَّالِثُ: رَأَوْا أَنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَاتِ مَا كَانَ فِيهِ نَفْعٌ مُتَعَدٍّ فَرَأَوْهُ أَفْضَلَ مِنْ النَّفْعِ الْقَاصِرِ فَرَأَوْا خِدْمَةَ الْفُقَرَاءِ وَالِاشْتِغَالَ بِمَصَالِحِ النَّاسِ وَقَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ وَمُسَاعَدَتَهُمْ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ وَالنَّفْعِ أَفْضَلَ لِقَوْلِهِ ﷺ «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»^(١). قَالُوا: وَعَمَلُ الْعَابِدِ قَاصِرٌ عَلَى نَفْسِهِ وَعَمَلُ النَّفَاعِ مُتَعَدٍّ إِلَى الْغَيْرِ ، فَأَيْنَ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخِرِ؟ ، وَلِهَذَا كَانَ فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. وَقَدْ قَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(٢) وَقَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَنْ أَجُورَ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا»^(٣) ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ»^(٤) ، وَقَالَ: «إِنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ

(١) رواه الطبراني في معجمه

(٢) رواه ابن عبد البر في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» عن سهل بن سعد ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي رافع، بلفظ «لأن يهدي الله على يديك رجلا خيرا لك مما طلعت عليه الشمس وغربت».

(٣) هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا».

(٤) الحديث رواه الترمذي عن أبي أمامة مطوَّلاً وقال حديث حسن صحيح، ورواه البزار =

ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها ، قالوا ،
 وصاحبُ العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحبُ النفع لا ينقطع عمله
 مادام نفعه الذي تسبب فيه . والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا
 بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومآلاتهم ولهم يبعثوا
 بالخلوات والانقطاع ، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا
 بالانقطاع والتعبد وترك مخالطة الناس ، ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع
 الخلق أفضل من الجمعية على الله (*) بدون ذلك قالوا ومن ذلك العلم
 والتعليم ونحو هذه الأمور الفاضلة .

أفضلُ العبادة الاشتغالُ في كل وقت بما يناسبه

أهلُ التعبُّد المطلق ومنهاجهم المتكامل :

الصف الرابع : قالوا : أفضلُ العبادة العملُ على مرضاة الرب سبحانه
 وتعالى واشتغالُ كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضلُ
 العبادات في وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل
 وصيام النهار ، بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن (**)
 والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به . والأفضل

= من حديث عائشة مختصراً ، قال : «مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَيْتَانُ فِي
 الْبَحْرِ» ، وقد ورد في مدح العلم والعلماء أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر ، والمراد
 بالعلم ، العلمُ النَّافِعُ الَّذِي تَظْهَرُ أَثَرُهُ بِالْمُتَّصِفِ بِهِ عَمَلًا ، وليس المراد به علم أكثر
 أهل الزمان المجرد عن العمل به والإخلاص .

(*) وهذان طرفان في مساق الأخذ بوجه وزاوية واحدة دون تحقيق مطلوبات الشرع وأوامره
 من كل ناحية . وأن يكون كل شيء في حينه ووقته ، وعلى حسب الأحوال والمقامات
 على مقتضى الاقتداء (طاء) .

(**) ففي حالة الأمن والإقامة يُصَلِّي الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات ، أما في حالة
 السفر أو الخوف (الحرب) فتُقصر كل صلاة منها ، وتُصَلِّي ركعتين (طاء)

فى وقتِ السَّحَرِ الاِشْتِغَالُ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ وَالِدُعَاءِ ، وَالْأَفْضَلُ فى
 وقتِ الأَذَانِ تَرْكُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأُورَادِ وَالِاشْتِغَالِ بِإِجَابَةِ الْمُؤَذِّنِ . وَالْأَفْضَلُ
 فى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْجِدُّ وَالِاجْتِهَادُ فى إِيقَاعِهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ
 وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا فى أَوَّلِ الْوَقْتِ وَالْخُرُوجُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَإِنْ بَعْدَ . وَالْأَفْضَلُ فى
 أَوْقَاتِ ضَرُورَةِ الْمَحْتَاجِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ وَالْبَدَنِ . وَالْأَفْضَلُ فى
 السَّفَرِ مُسَاعَدَةُ الْمَحْتَاجِ وَإِعَانَةُ الرُّفْقَةِ وَإِشَارُ ذَلِكَ عَلَى الْأُورَادِ وَالْخُلُوةِ .
 وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ جَمْعِيَّةُ الْقَلْبِ وَالْهِمَّةُ عَلَى تَدْبِيرِهِ وَالْعَزْمُ
 عَلَى تَنْفِيزِ أَوْامِرِهِ أَعْظَمُ مِنْ جَمْعِيَّةِ قَلْبٍ مِنْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى
 ذَلِكَ . وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ الْاجْتِهَادُ فى التَّضَرُّعِ وَالِدُعَاءِ وَالذِّكْرِ .
 وَالْأَفْضَلُ فى أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْإِكْثَارُ مِنَ التَّعَبُّدِ لِأَسْمَاءِ التَّكْبِيرِ
 وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ الْغَيْرِ الْمُتَعَيَّنِ . وَالْأَفْضَلُ فى الْعَشْرَةِ
 الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَزُومُ الْمَسَاجِدِ وَالْخُلُوةِ فِيهَا مَعَ الْإِعْتِكَافِ وَالْإِعْرَاضِ
 عَنْ مَخَالِطَةِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِمْ حَتَّى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى تَعْلِيمِهِمْ
 الْعِلْمَ وَإِقْرَائِهِمُ الْقُرْآنَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ مَرَضِ
 أَخِيكَ الْمُسْلِمِ أَوْ مَوْتِهِ عِيَادَتُهُ وَحُضُورُ جَنَازَتِهِ وَتَشْيِيعُهُ وَتَقْدِيمُ ذَلِكَ عَلَى
 خَلُوتِكَ وَجَمْعِيَّتِكَ . وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ نَزُولِ النَّوَازِلِ وَإِذَاءِ النَّاسِ لَكَ
 أَدَاءٌ وَاجِبُ الصَّبْرِ مَعَ خُلُطَتِكَ لَهُمْ ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِى يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ
 عَلَى أَذَاهُمْ أَوْ إِذْيَانِهِمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِى لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ
 عَلَى أَذَاهُمْ . وَخُلُطَتُهُمْ فى الْخَيْرِ أَفْضَلُ مِنْ عَزْلَتِهِمْ فِيهِ ، وَعَزْلَتُهُمْ فى
 الشَّرِّ أَفْضَلُ مِنْ خُلُطَتِهِمْ فِيهِ . فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُمْ أَزَالَهُ ^(١) وَقَلَّلَهُ ،
 فَخُلُطَتُهُمْ خَيْرٌ مِنْ اعْتِرَالِهِمْ ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ أَهْلُ التَّعَبُّدِ الْمُطْلَقِ ، وَالْأَصْنَافُ

(١) قَوْلُهُ أَزَالَهُ وَقَلَّلَهُ يَعْنِى الشَّرَّ الْمُتَقَدِّمَ ذِكْرَهُ قَبْلُ .

التى قبلهم أهلُ التَّعَبُّدِ الْمُقَيَّدِ ، فمَتَى خَرَجَ أَحَدُهُمْ عَنِ الْفَرْعِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَفَارَقَهُ يَرَى نَفْسَهُ كَأَنَّهُ قَدْ نَقَصَ وَنَزَلَ عَنْ عِبَادَتِهِ فَهُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ وَصَاحِبُ التَّعَبُّدِ الْمَطْلُوقِ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي تَعَبُّدٍ بَعَيْنُهُ يُؤَثِّرُهُ عَلَى غَيْرِهِ بَلْ غَرَضُهُ تَتَبُعُ مَرْضَاةَ اللَّهِ تَعَالَى: إِنْ رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ وَكَذَلِكَ فِي الْذَاكِرِينَ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَأَرْبَابِ الْجُمُعَةِ وَعُكُوفِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ ، فَهَذَا هُوَ الْغِذَاءُ الْجَامِعُ لِلْسَّائِرِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ طَرِيقٍ وَالْوَافِدِ عَلَيْهِ مَعَ كُلِّ فَرِيقٍ .

مثالٌ وَدَلِيلٌ عَلَى سَلَامَةِ وَصْحَةِ مَنِهْجِ أَهْلِ التَّعَبُّدِ الْمَطْلُوقِ:
وَأَسْتَحْضِرُ هَهُنَا حَدِيثَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ بِحَضْرِهِ «هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟» ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَصْبَحَ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ عَادَ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ اتَّبَعَ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا» (١) الْحَدِيثُ: هَذَا الْحَدِيثُ رَوَى مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ أَبِي عَقِيلٍ . حَدَّثَنَا نُعَيْمُ بْنُ سَالِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَنْ صَامَ الْيَوْمَ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: مَنْ تَصَدَّقَ الْيَوْمَ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: مَنْ عَادَ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ قَالَ أَبُو

(١) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ عَبْدُ الْمُظْمِرِ الْمُنْذَرِيُّ فِي كِتَابِهِ «التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهيبُ» ، وَسَكَتَ عَنْهُ ، وَلَفَّظَهُ: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا ، فَقَالَ: مَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، فَقَالَ: مَنْ تَبَعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، فَقَالَ: مَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ قَطُّ فِي رَجُلٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» .

بكر: أنا ، قال: من شهدَ اليومَ جَنَازَةً؟ قال أبو بكر: أنا ، قال: وَجَبَتْ لَكَ^١ يَـعْنَى: الْجَنَّةَ . وَنُعِيْمُ بْنُ سَالِمٍ وَإِنْ تُكَلِّمَ فِيهِ لَكِنْ تَابِعَهُ سَلَمَةُ بْنُ وَرْدَانَ وَلَهُ أَصْلٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ شَهَابٍ عَنْ حُمَيْدِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ يَاعْبُدُ اللَّهُ هَذَا خَيْرٌ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ نُودِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ نُودِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَارَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا مِنْ ضَرُورَةٍ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١) هَكَذَا رَوَاهُ عَنْ مَالِكٍ مَوْصُولًا مُسْنَدًا عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى وَمَعْنُ ابْنِ عِيسَى وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، وَرَوَاهُ يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ حُمَيْدٍ مُرْسَلًا . وَلَيْسَ هُوَ عِنْدَ السَّقَعِيِّ لَا مُرْسَلًا وَلَا مُسْنَدًا .

تَفْسِيرُ لِكَلِمَةِ:

وَمَعْنَى قَوْلِهِ «مَنْ أَتَفَقَ زَوْجَيْنِ» يَـعْنَى شَيْئَيْنِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ نَحْوِ دَرْهَمَيْنِ أَوْ دِينَارَيْنِ أَوْ فَرَسَيْنِ أَوْ قَمِيصَيْنِ ، وَكَذَلِكَ مِنْ صَلًى رَكَعَتَيْنِ أَوْ مَشًى فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى خَطَوَتَيْنِ أَوْ صَامَ يَوْمَيْنِ وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَقَلَّ التَّكْرَارِ وَأَقَلَّ وُجُوهِ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ، لِأَنَّ الْاِثْنَيْنِ أَقَلُّ الْجَمْعِ .

(١) خَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ

ثَنَاءٌ عَلَى مَنْ يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ:

فهذا (١) كَالْغَيْثِ ، أَيْنَ وَقَعَ نَفَعَ ، صَحِبَ اللَّهُ بِلَا خَلْقٍ ، وَصَحِبَ الْخَلْقَ بِلَا نَفْسٍ ، إِذَا كَانَ مَعَ اللَّهِ عَزَلَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْبَيْنِ ، وَتَخَلَّى عَنْهُمْ وَإِذَا كَانَ مَعَ خَلْقِهِ عَزَلَ نَفْسَهُ مِنَ الْوَسْطِ وَتَخَلَّى عَنْهَا ، فَمَا أَغْرَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا أَشَدَّ وَحْشَتَهُ مِنْهُمْ ، وَمَا أَعْظَمَ أَنْسَهُ بِاللَّهِ وَفَرَحَهُ بِهِ ، وَطُمَأْنِينَتَهُ وَسُكُونَهُ إِلَيْهِ .

للناس في منفعة العبادة طرقٌ أربع

المذاهبُ في بيان حِكْمَةِ الْعِبَادَةِ وَعِلَّتِهَا:

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي مَنْفَعَةِ الْعِبَادَةِ وَحِكْمَتِهَا وَمَقْصُودِهَا طَرُقًا أَرْبَعَةً وَهُمْ فِي تِلْكَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ: الصَّنْفُ الْأَوَّلُ ، نَفَاةُ الْحَكَمِ وَالتَّعْلِيلِ الَّذِينَ يَرُدُّونَ الْأَمْرَ إِلَى نَفْسِ الْمَشِئَةِ وَصَرَفِ الْإِرَادَةِ ، فَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمُ الْقِيَامُ بِهَا لَيْسَ إِلَّا لِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِسَعَادَةٍ فِي مَعَاشٍ وَلَا مَعَادٍ وَلَا سَبَبًا لِنَجَاةٍ وَإِنَّمَا الْقِيَامُ بِهَا لِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَمَحْضِ الْمَشِئَةِ ، كَمَا قَالُوا فِي الْخَلْقِ لَمْ يُخْلَقْ لِنَجَاةٍ وَلَا لَعَلَّةٍ هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِهِ ، وَلَا لِحِكْمَةٍ تَعُودُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقِ أَسْبَابٌ تَكُونُ مُقْتَضِيَاتٍ لِمُسَبِّبَاتِهَا ، وَلَيْسَ فِي النَّارِ سَبَبٌ لِلْإِحْرَاقِ ، وَلَا فِي الْمَاءِ قُوَّةٌ لِلْإِغْرَاقِ وَلَا التَّبْرِيدِ ، وَهَكَذَا الْأَمْرُ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، لَا فَرْقَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ ، وَلَكِنَّ الْمَشِئَةَ اقْتَضَتْ أَمْرَهُ بِهَذَا وَنَهْيَهُ عَنْ هَذَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقُومَ بِالْمَأْمُورِ بِهِ صِفَةً تَقْتَضِي حُسَنَهُ ، وَلَا بِالْمَنْهَى عَنْهُ صِفَةً تَقْتَضِي قُبْحَهُ .

(١) اسْمُ الْإِشَارَةِ رَاجِعٌ إِلَى الصَّنْفِ الرَّابِعِ الْعَامِلِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالْأَفْضَلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .

ذَمُّ هَذَا الْمَذْهَبِ «وَهُمُ الْجَبَرِيَّةُ»:

وَلِهَذَا الْأَصْلِ لَوَازِمٌ فَاسِدَةٌ وَفُرُوعٌ كَثِيرَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ غَالِبُهُمْ لَا يَجِدُونَ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ وَلَا لَذَّتَهَا وَلَا يَتَنَعَّمُونَ بِهَا ، وَلِهَذَا يُسَمُّونَ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالتَّوْحِيدَ وَالْإِخْلَاصَ وَنَحْوَ ذَلِكَ تَكَالِيفَ ، أَيْ كُلَّفُوا بِهَا وَلَوْ سَمَّى مُدْعَى مَحَبَّةً مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ تَكْلِيفًا لَمْ يَعُدْ مُحِبًّا لَهُ ، وَأَوَّلُ مَنْ صَدَّرَتْ عَنْهُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ «الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ» (*).

أول بدعة ظهرت في الإسلام ومذهب القدرية والمعتزلة

الصَّنْفُ الثَّانِي: الْقَدَرِيَّةُ^(١). . . الثَّقَاةُ الَّذِينَ يُشْتَبُونَ نَوْعًا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ

(*) سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ «الْجَعْدُ بْنَ دِرْهَمٍ» ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ حَفِظَ عَنْهُ الْقَوْلَ بِتَعْطِيلِ الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَخَذَهَا عَنْهُ «الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ» وَأَظْهَرَهَا ، فَصَارَتْ هُنَاكَ فِرْقَةً ضَالَّةً تُسَمَّى «الْجَهْمِيَّةَ» نَسْبَةً إِلَيْهِ. (طاء)

(١) اعْلَمْ: أَنَّ أَوَّلَ بَدْعَةٍ ظَهَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةُ الْقَدَرِ وَبَدْعَةُ الْإِرْجَاءِ وَبَدْعَةُ التَّشْيِيعِ وَالْخَوَارِجِ. وَأَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقَدَرِ «مُعْبِدُ الْجَهَنِّي»، وَهَذِهِ الْبِدْعُ ظَهَرَتْ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَالصَّحَابَةُ مُوجِدُونَ. وَقَدْ أَنْكَرُوا عَلَى أَهْلِهَا، ثُمَّ ظَهَرَتْ بَدْعَةُ الْإِعْتِزَالِ وَلَمْ يَزَلِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى النَّهْجِ الْأَوَّلِ وَلِزُومِ ظَاهِرِ السَّنَةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى أَنْ حَدَّثَتِ الْفِتْنُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالبَغْيُ عَلَى أَيْمَةِ الدِّينِ وَظَهَرَ اخْتِلَافُ الْأَرَاءِ وَالْمِيلُ إِلَى الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ وَكَثُرَتِ الْمَسَائِلُ وَالْوَقَاعَاتُ وَالرَّجُوعُ إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي الْمَهْمَاتِ، فَاشْتَغَلُوا بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالِاسْتِنْبَاطِ وَالتَّنَاقُصِ وَتَمْهِيدِ الْقَوَاعِدِ، وَإِنْتَاجِ الْقَضَايَا وَالْفَوَائِدِ، وَأَخَذُوا فِي التَّبْوِيبِ وَالتَّفْصِيلِ وَالتَّرْتِيبِ وَالتَّأْصِيلِ، فَاسْسَتْ فِرْقَةُ الْمُعْتَزِلَةِ قَوَاعِدَ الْخِلَافِ، وَنَهَجَتْ مَنَهِجَ الْفِرْقَةِ وَالْإِنْحِرَافِ، وَكَانَ أَوَّلُ (*) مِنْ اعْتَزَلَ عَنْ مَجْلِسِ سَيِّدِ التَّابِعِينَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ «وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ» رَئِيسُ الطَّائِفَةِ الْمُعْتَزِلَةِ. وَمَذْهَبُ السَّلَفِ هُوَ الْمَذْهَبُ الْمَنْصُورُ وَالْحَقُّ الثَّابِتُ الْمَأْتُورُ، وَأَهْلُهُ هُمُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَّةُ وَالطَّائِفَةُ الْمَرْحُومَةُ الَّتِي هِيَ بِكُلِّ خَيْرٍ فَائِزَةٌ وَلِكُلِّ مَكْرُمَةٍ رَاجِيَةٌ: مِنَ الشَّفَاعَةِ وَالْوَرُودِ عَلَى الْخَوْضِ وَرُؤْيَةِ الْحَقِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَمَذْهَبُ السَّلَفِ حَقٌّ بَيْنَ بَاطِلِينَ، وَهَدًى بَيْنَ ضَلَالِينَ. قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: مَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، فَالْمَعْطَلُ يَعْبُدُ عَدَمًا، وَالْمَثَلُ يَعْبُدُ صَنَمًا، وَالْمُسْلِمُ يَعْبُدُ رَبَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

(*) كَانَ أَوَّلَ . . . أَوَّلُ خَبِيرٍ كَانَ مُقَدِّمَ مَنْصُوبٍ بِالْفَتْحَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى آخِرِهِ وَوَاصِلُ اسْمِهَا

مؤخر مرفوع

لَا يَقُومُ بِالرَّبِّ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ . . . بَلْ يَرْجِعُ لِمَحْضِ مَصْلَحَةِ الْمَخْلُوقِ
وَمَنْفَعَتِهِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ شُرِعَتْ أَثْمَانًا لِمَا يَنَالُهُ الْعِبَادُ مِنَ الثَّوَابِ
وَالنَّعِيمِ، وَأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ اسْتِيفَاءِ الْأَجِيرِ أَجْرَهُ، قَالُوا، وَلِهَذَا يَجْعَلُهَا سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَوَضًا كَقَوْلِهِ ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾^(١) ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤) وَفِي
الصَّحِيحِ: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا عَلَيْكُمْ ثُمَّ أُوقِيَكُمْ إِيَّاهَا»، قَالُوا: وَقَدْ
سَمَّاهَا جَزَاءً وَأَجْرًا وَثَوَابًا لِأَنَّهُ شَيْءٌ يَثُوبُ إِلَى الْعَامِلِ مِنْ عَمَلِهِ، أَيْ يَرْجِعُ
إِلَيْهِ. قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَوَازَنَةُ، فَلَوْلَا تَعَلُّقُ الثَّوَابِ بِالْأَعْمَالِ عَوَضًا عَلَيْهَا
لَمْ يَكُنْ لِلْمَوَازَنَةِ مَعْنَى، وَهَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ . . . فَالْجَبَرِيَّةُ لَمْ تَجْعَلْ
لِلْأَعْمَالِ ارْتِبَاطًا بِالْجَزَاءِ الْبَتَّةِ، وَجَوَزَتْ أَنْ يُعَذِّبَ اللَّهُ مَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي
الطَّاعَةِ وَيُنْعِمَ مَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي مُخَالَفَتِهِ، وَكِلَاهُمَا سَوَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ،
وَالْكُلُّ رَاجِعٌ إِلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ. وَالْقَدَرِيَّةُ أَوْجَبَتْ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
رِعَايَةَ الْمَصَالِحِ وَجَعَلَتْ ذَلِكَ كُلَّهُ بِمَحْضِ الْأَعْمَالِ وَأَنَّ وُصُولَ الثَّوَابِ إِلَى
الْعَبْدِ بَدُونِ عَمَلِهِ فِيهِ تَنْقِيصٌ بِاحْتِمَالِ مَنَّةِ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ بِلاَ ثَمَنِ، فَجَعَلُوا
تَفْضِيلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ بِمَنْزِلَةِ صَدَقَةِ الْعَبْدِ عَلَى الْعَبْدِ وَإِعْطَائِهِ
مَا يُعْطِيهِ أَجْرَةً عَلَى عَمَلِهِ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَهُ فَضْلًا
مِنْهُ بِلاَ عَمَلٍ، وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلْأَعْمَالِ تَأْثِيرًا فِي الْجَزَاءِ الْبَتَّةِ، وَالطَّائِفَتَانِ

(١) الأعراف: ٤٣

(٢) النمل: ٩٠

(٣) النحل: ٣٢

(٤) الزمر: ١٠

مُنْحَرِفَانِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٠﴾ وَهُوَ أَنَّ الْأَعْمَالَ أَسْبَابٌ مُوصِلَةٌ إِلَى الثَّوَابِ
وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَلَيْسَتْ قَدَرًا لِحَزَائِهِ وَثَوَابِهِ بَلْ
غَايَتُهَا إِذَا وَقَعَتْ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ أَنْ تَكُونَ شُكْرًا عَلَى أَحَدِ الْأَجْزَاءِ
الْقَلِيلَةِ مِنْ نِعَمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ
وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ.
وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ مَعَ
قَوْلِهِ ﷺ «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» ﴿١٢﴾ تَجِدُ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْجَنَانَ بِالْأَعْمَالِ، وَالْحَدِيثَ يَنْفَى دُخُولَ الْجَنَّةِ بِالْأَعْمَالِ، وَلَا تَنَافَى بَيْنَهُمَا،
لَأَنَّ تَوَارُدَّ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ لَيْسَ عَلَى مَحَلٍّ وَاحِدٍ، فَالْمُنْفَى بَاءُ الثَّمَنَِّةِ
وَاسْتِحْقَاقُ الْجَنَّةِ بِمُجَرَّدِ الْأَعْمَالِ رَدًّا عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ الَّتِي رَعَمَتْ
أَنَّ التَّفَضُّلَ بِالثَّوَابِ ابْتِدَاءً مُتَضَمِّنٌ لِتَكْدِيرِ الْمِنَّةِ.

﴿١٠﴾ جَاءَ فِي الصَّحَاحِ فِي مَادَّةِ (ج ب ر): الْجَبْرُ خِلَافُ الْقَدَرِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ كَلَامٌ
مَوْلَدٌ، وَالْجَبْرِيَّةُ - بِسُكُونِ الْبَاءِ وَفَتْحِهَا - خِلَافُ الْقَدَرِيَّةِ، وَقَدْ بَيَّنَّ الْمَقْرِيزِيُّ جُذُورَ الْخِلَافِ
الْفِكْرِيِّ بَيْنَ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ الْمُنْحَرِفَتَيْنِ عَنْ جَادَةِ وَسْطِيَّةِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ شَرَعَ
الْمَقْرِيزِيُّ فِي بَيَانِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَدَأَ مِنْ قَوْلِهِ: «وَهُوَ - أَيِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
أَنَّ الْأَعْمَالَ أَسْبَابٌ مُوصِلَةٌ إِلَى الثَّوَابِ وَمَا بَعْدَهُ» (طَاء)
(١) الزَّخْرَفُ: ٧٢.

(٢) الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ: وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا
يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدَّدُوا، وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِلَّا مُحْسِنًا،
فَلَعَلَهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا، وَإِنَّمَا مَسِيئًا فَلَعَلَهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ» فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ
بِالْعَقْلِ ثَوَابٌ، وَلَا عِقَابٌ، بَلْ ثُبُوتُهُمَا بِالشَّرِيعَةِ حَتَّى لَوْ عَذَّبَ اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ
الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ عَدْلًا مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، بَلْ يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيُعَذِّبُ
الْكَافِرِينَ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ فِي ذِكْرِ الْقَدَرِ (وَفِيهِ)
«لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ
رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ» الْحَدِيثُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية(*) ردًا على القدرية الجبرية الذين يقولون لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها وإنما غايتها أن تكون أمانة.

والسُّنَّةُ النبويَّةُ هي أنَّ عُمومَ مشيئةِ الله وقدرته لا تُنافي رِبَطَ الأسبابِ بالمُسَبِّباتِ وارتباطها بها، وكلُّ طائفةٍ من أهلِ الباطلِ تَرَكَّتْ نَوْعًا من الحقِّ، فإنَّها ارتكبتْ لِأجلِهِ نَوْعًا من الباطلِ، بَلْ أنواعًا، فَهَدَى اللهُ أَهْلَ السُّنَّةِ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ.

أربابُ رياضةِ النفوسِ وطرائقهم:

الصَّنْفُ الثالثُ: الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ فَائِدَةَ الْعِبَادَةِ رِيَاضَةُ النَّفْسِ واستعدادها لفيضِ العلومِ والمعارِفِ عليها وخروجُ قُوَّاهَا من قُوَى النَّفْسِ السَّعِيَّةِ وَالْبَهِيمِيَّةِ، فَلَوْ عَطَلَّتِ الْعِبَادَةُ لِاتَّحَقَّتْ بِنَفْسِ السَّبَّاحِ وَالْبَهَائِمِ، فَالْعِبَادَةُ تُخْرِجُهَا إِلَى مُشَابَهَةِ الْعُقُولِ فَتَصِيرُ قَابِلَةً لِاتِّقَاشِ صُورِ الْمَعَارِفِ فِيهَا. وهذا يقولُهُ طائفتان، إحداهما

بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَعَدَمِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ. والطائفةُ الثَّانِيَةُ مَنْ تَفَلَّسَفَ مِنْ صُوفِيَّةِ الْإِسْلَامِ وَيَقْرَبُ إِلَى الْفَلَّاسِفَةِ، فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْعِبَادَاتِ رِيَاضَاتٌ لِاسْتِعْدَادِ

(*) أَي نَحْوُ مَا جَاءَ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أَي: بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ نَالْتَكُمُ رَحْمَةَ اللَّهِ فَدَخَلْتُمُ الْجَنَّةَ وَتَبَوَّأْتُمُ مَنَازِلَكُمُ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمُ، وَفِي النَّحْلِ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فَتِلْكَ بَاءُ السَّبَبِ كَمَا نَقُولُ: فَرَحْنَا بِالْمَوْلُودِ، أَي بِسَبَبِ وَلادَتِهِ، وَلَيْسَتْ مِنْ قَبِيلِ «اشْتَرَيْتُ هَذِهِ السَّلْعَةَ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ»، فَالْبَاءُ هُنَا لِلثَّمَنِ واستحقاقِ تَمَلُّكِ السَّلْعَةِ بِالْمُبْلَغِ، فَلَيْسَتْ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مَسَاوِيَةً فِي الْقِيَمَةِ وَالْمَقْدَارِ لِلثَّوَابِ (الجنة) بِحَيْثُ تُصَوِّرُ أَثْمَانًا لَهُ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْبَابٌ، أَمَّا الثَّوَابُ فَبِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْظُمُ رَجَاؤُهُ فِي قَبُولِ اللَّهِ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ وَأَنْ يَعْفُوَ بِفَضْلِهِ عَنِ التَّقْصِيرِ وَلَا يَقَعُ مِنَ الْمُؤْمِنِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ، فَنَحْنُ نَتَوَبُّ وَنُقْبِلُ عَلَى الْخَيْرِ، وَنَتَنَّى عَنِ الشَّرِّ، وَنُحَسِّنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ، وَنَطْمَعُ فِي رَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ (طاء).

(**) فِي الْأَصْلِ عِبَارَةٌ غَيْرُ مَشْرُوحِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا فَحُذِفَتْ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِالْمَقْصُودِ

النُّفُوسِ لِلْمَعَارِفِ الْعَقْلِيَّةِ وَمُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ. ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ لَا يُوجِبُ الْعِبَادَةَ إِلَّا بِهَذَا الْمَعْنَى، فَإِذَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بَقِيَ مُتَحِيرًا فِي حِفْظِ أَوْرَادِهِ وَالِاسْتِغْثَالِ بِالْوَارِدِ عَنْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُ الْقِيَامَ بِالْأَوْرَادِ وَعَدَمَ الْإِخْلَالَ بِهَا، وَهُمْ صِنْفَانِ أَيْضًا: أَحَدُهُمَا مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِهَا حِفْظًا لِلْقَانُونِ وَضَبْطًا لِلنَّامُوسِ، وَالْآخَرُونَ يُوجِبُونَهَا حِفْظًا لِلْوَارِدِ وَخَوْفًا مِنْ تَدْرُجِ النَّفْسِ بِمَفَارِقَتِهَا إِلَى حَالِهَا الْأُولَى مِنَ الْبَهِيمَةِ، فَهَذِهِ نَهَايَةُ إِقْدَامِهِمْ فِي حِكْمَةِ الْعِبَادَةِ وَمَا شُرِعَتْ لِأَجْلِهِ، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ فِي كُتُبِ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى طَرِيقِ السُّلُوكِ غَيْرَ طَرِيقٍ مِنْ هَذِهِ الطُّرُقِ الثَّلَاثَةِ أَوْ مَجْمُوعِهَا.

الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ:

وَالصَّنْفُ الرَّابِعُ: هُمُ الْقَائِلُونَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالْقَدَرِ وَالسَّبَبِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ سِرَّ الْعِبَادَةِ وَغَايَتَهَا مَبْنِيٌّ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَمَعْنَى كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَهًا وَأَنَّ الْعِبَادَةَ مُوجِبُ الْإِلَهِيَّةِ وَأَثَرُهَا وَمُقْتَضَاها(*) وَارْتِبَاطُهَا كَارْتِبَاطِ مَتَعَلِّقِ الصِّفَاتِ بِالصِّفَاتِ، وَكَارْتِبَاطِ الْمَعْلُومِ بِالْعِلْمِ وَالْمَقْدُورِ بِالْقُدْرَةِ، وَالْأَصْوَاتِ بِالسَّمْعِ وَالْإِحْسَانَ بِالرَّحْمَةِ وَالْإِعْطَاءَ بِالْجُودِ، فَعِنْدَهُمْ مَنْ قَامَ بِمَعْرِفَتِهَا عَلَى النَّحْوِ(**) الَّذِي فَسَّرْنَا بِهَا لُغَةً وَشَرَعًا مُصَدَّرًا وَمُورَدًا اسْتِقَامَ لَهُ مَعْرِفَةُ حِكْمَةِ الْعِبَادَاتِ وَغَايَتِهَا، وَعَلِمَ أَنَّهَا هِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا الْعِبَادَةُ، وَلَهَا أُرْسِلَتْ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ الْكُتُبُ، وَخُلِقَتْ

(*) «وَمَعْنَى كَوْنِهِ»، مَعْطُوفٌ عَلَى «مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ» مُجْرُورٌ، أَيْ: وَعَلَى مَعْنَى كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَهًا، فَمَنْ عَرَفَ مَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ وَحَدَّ رَبَّهُ، وَخَصَّهُ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَإِقْرَارًا بِذَلِكَ الْعِبَادِيَّةِ لَمْ لَهُ كَمَالُ الْقُدْرَةِ وَكَمَالُ الرَّحْمَةِ وَاعْتِرَافًا بِأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرَكْهُ سُدًى، بَلْ خَلَقَهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيَعْبُدَهُ وَيَلْتَزِمَ مُقْتَضَى أَمْرِهِ وَتَهْيِئَةَ خُضُوعًا وَانْقِيَادًا لِيَكُونَ أَهْلًا لِرَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(طَاء)

(**) فِي الْأَصْلِ: عَلَى نَحْوِ فِي الْأَصْلِ «وَوَاقِعَتِهَا بِه»

الجنة والنار. وقد صرَّح سبحانه وتعالى بذلك في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، فالعبادة هي التي ما وجدت الخلائق كلها إلا لأجلها، كما قال تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٢) أى مهملاً. قال الشافعي رحمه الله، لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب، وهما تفسيران صحيحان، فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾^(٣)، وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٤) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٥). فأخبر الله تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيهِ وثوابه وعقابه، فإذا كانت السموات والأرض إنما خلقت لهذا وهو غاية الخلق، فكيف يقال إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة، أو إن ذلك لمجرد استئجار^(*) العمال حتى لا يتكدر عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد خلقتنا لعبادة الله:

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال^(**) وبين ما دل عليه صريح

(٣) آل عمران: ١٩١

(٢) القيامة: ٣٦

(١) الذاريات: ٥٦

(٥) الجاثية: ٢٢

(٤) الحجر: ٨٥

(*) في الأصل «بمجرد استئجار» بالباء

(**) اسم الإشارة (هذه) راجع إلى أقوال الأقسام الثلاثة بالمقارنة مع القسم الرابع، وأن القول الحق في معنى العبادة وتطبيقها هو ما عليه أهل السنة والجماعة المتبعين لرسول الله ﷺ، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تعطيل، لإيمانهم بأن الإنسان ما خلق إلا لعبادة الله على مقتضى أمره ونهيهِ، تلك العبادة الجامعة لكمال محبته سبحانه وتعالى للمقتضية لمحبة من أحبه الله كرسله وأنبيائه وملائكته الكرام (طاء).

الوحي عِلْمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ الْجَامِعَةِ لِكَمَالِ مَحَبَّتِهِ مَعَ الْخُضُوعِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، فَأَصْلُ الْعِبَادَةِ مَحَبَّةُ اللَّهِ، بَلْ إِفْرَادُهُ تَعَالَى بِالْمَحَبَّةِ، فَلَا يُحِبُّ مَعَهُ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ لِأَجَلِهِ وَفِيهِ، كَمَا يُحِبُّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ، وَلَيْسَتْ كَمَحَبَّةٍ مِنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أُنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحَبِّهِ وَإِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ لَهُ هِيَ حَقِيقَةُ عُبُودِيَّتِهِ وَسِرِّهَا، فَهِيَ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، فَعِنْدَ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلِهَذَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتِّبَاعَ رَسُولِهِ ﷺ عِلْمًا عَلَيْهَا وَشَاهِدًا لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١)، فَجَعَلَ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ مَشْرُوطًا بِمَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَشَرْطًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُمْ، وَوُجُودُ الْمَشْرُوطِ بِدُونِ تَحَقُّقِ شَرْطِهِ مَمْتَنِعٌ فَعُلِمَ انْتِفَاءُ الْمَحَبَّةِ عِنْدَ انْتِفَاءِ الْمُتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ. وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا. وَمَتَى كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُمَا فَهُوَ الْإِشْرَاكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ. قَالَ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢)، وَكُلُّ مَنْ قَدَّمَ قَوْلَ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ أَوْ حَكَمَ بِهِ أَوْ حَاكَمَ إِلَيْهِ فَلَيْسَ مِمَّنْ أَحَبَّهُ لَكِنْ قَدْ يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ عَلَى مَنْ يَقْدُمُ قَوْلَ أَحَدٍ أَوْ حُكْمَهُ أَوْ طَاعَتَهُ عَلَى قَوْلِهِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ وَلَا يَحْكُمُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا مَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ فَيُطِيعُهُ وَيَحَاكُمُ إِلَيْهِ وَيَتَلَقَّى أَقْوَالَ كَذَلِكَ، فَهَذَا مَعْدُورٌ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وأما إذا قدرَ على الوصولِ إلى الرسولِ ﷺ وعَرَفَ أنَّ غيرَ من اتَّبَعَهُ
أولى به مطلقاً أو فى بعضِ الأمورِ كمسألة معيَّنة ولم يلتفتْ إلى قول الرسولِ
ﷺ ولا إلى مَنْ هو أولى به ، فهذا يُخَافُ عليه ، وكلُّ ما يتعلَّلُ به من
عَدَمِ العلمِ أو عَدَمِ الفَهمِ أو عَدَمِ إعطاءِ آلةِ الفقه فى الدينِ أو الاحتجاجِ
بالأشباه والنظائرِ أو بأنَّ ذلكَ المتقدمَ كانَ أعلمَ منى بِمُرَادِهِ ﷺ فهى كُلُّها
تعلُّلاتٌ لاتنفيدُ .

هذا مع الإقرارِ بجوازِ الخطأِ على غيرِ المعصومِ إلّا أن يُنازَعَ فى هذه
القاعدة فتسقطُ مكالمتهُ ، وهذا هو داخلٌ تحتَ الوعيدِ فإن استحلَّ مع ذلكَ
ثُلُبَ من خالفه وقرضَ عرضه ودينه بلسانه ، وانتقلَ من هذا إلى عقوبته
أو السعى فى أذاه فهو من الظلِّمة المعتدين ونوابِ المفسدين .

واعلم أنَّ العبادةَ أربعُ قواعدٍ ، وهى : التحقيقُ بما يُحِبُّ اللهُ ورسولُهُ
وإرضاءُهُ ، وقيامُ ذلكَ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ ، فالعبوديةُ اسمٌ جامعٌ
لهذه المراتبِ الأربعِ : فأصحابُ العبادةِ حقاً هم أصحابُها ، فقولُ القلبِ
هو اعتقادُ ما أخبرَ الله تعالى عن نفسه وأخبرَ رسولُهُ عن ربِّه من أسمائه
وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه وما أشبه ذلك . وقولُ اللسانِ الإخبارُ عنه
بذلكَ والدعاءُ إليه والذَّبُّ عنه وتبيينُ بطلانِ البدعِ المخالفةِ له ، والقيامُ
بذكرهِ تعالى ، وتبليغُ أمرِهِ ، وعملُ القلبِ كالمحبةِ له والتوكلِ عليه
والإنابةِ والخوفِ والرجاءِ والإخلاصِ والصبرِ على أوامره ونواهيه وإقراره
والرضاءِ به وله وعنه ، والموالاته فيه والمعاداة فيه ، والإخباراتِ إليه والطمأنينةُ
ونحو ذلكَ من أعمالِ القلوبِ التى فرضها أكد من فرضِ أعمالِ
الجوارحِ ومستحبُّها إلى الله تعالى أحبُّ من مُستحبِّ أعمالِ الجوارحِ ، وأما
أعمالُ الجوارحِ فكالصلاةِ والجهادِ ونقلِ الأقدامِ إلى الجمعةِ والجماعاتِ

ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك. فَقَوْلُ الْعَبْدِ فِي صَلَوَاتِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التَّزَامُ أَحْكَامُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ وَإِقْرَارٌ بِهَا، وَقَوْلُهُ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طَلَبُ الْإِعَانَةِ عَلَيْهَا وَالتَّوْفِيقِ لَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مُتَضَمِّنٌ لِلْأَمْرَيْنِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْهَامِ الْقِيَامَ بِهِمَا وَسُلُوكِ طَرِيقِ السَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مَنْ لَانَبِيَّ بَعْدَهُ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَوَارِثِيهِ وَحَزْبِهِ.

تم الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً



قال الله لنبيه موسى عليه السلام:

«إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»

[طه: الآية: ١٤]

وقال سبحانه لنبيه محمد ﷺ:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ»

[الأنبياء: الآية: ٢٥]

أَنَا فَاعْبُدُونِ

كلام ابن القيم فى حلق الرأس واللحية وفيه فوائد كثيرة

قد تقدم للمؤلف المقرئى كلام فى حلق الرأس ، وأجمل القول فى ذلك ، ولما كان الحكم فى ذاته فيه تفصيل ، أحيينا(*) أن نذكر هنا ما أورده الحافظ العلامة شمس الدين ابن القيم(**) فى كتابه «زاد المعاد فى هدى خير العباد» ، قال فى كتاب الطب من الجزء الثانى فى علاج القمل الذى فى الرأس وإزالته : و حلق الرأس ثلاثة أنواع : أحدها نُسْكٌ وقُرْبَةٌ ، والثانى : بدعةٌ وشركٌ ، والثالث : حاجةٌ ودواءٌ . فالأول الحلق فى أحد النُسكين : الحجُّ والعُمرة والثانى : حلق الرأس لغير الله سبحانه وتعالى كما يحلقها المريدون لشيخهم ، فيقول أحدهم : أنا حلقتُ رأسى لفلان ، وأنتَ حلقتَهُ لفلان ، وهذا بمنزلة أن يقول سجدتُ لفلان فإنَّ حلقَ الرأسِ خضوعٌ وعبوديةٌ وذلٌّ ، ولهذا كان من تمام الحجِّ حتى أنه عند الشافعى رحمه الله تعالى ركنٌ من أركانه لا يتم إلا به ، فإنَّ وَضَعَ النواصى بين يدي ربِّها خضوعٌ لعظمته ، وتذلُّلٌ لِعِزَّتِهِ ، وهو من أبلغ أنواع العبودية ، ولهذا كانت العربُ إذا أرادت إذلالَ الأسيرِ منهم وعتقه حلَّقوا رأسَهُ وأطلقوه ، فجاءَ شيوخُ الضلالِ والمزاحمون للربوبية الذين أساسُ مشيختهم على الشركِ والبدعةِ فأرادوا من مريدِهِم أن يتعبدوا

(*) الضمير «نا» يعود إلى الدار المنيرة للطباعة بالقاهرة ، وهذه الفائدة من مختاراتها لبيان وتوضيح ما جاء بالإجمال فى الكتاب عن حلق الرأس تعبدًا .

(**) ابن قيم الجوزية صاحب كتاب «مدارج السالكين» ، توفى فى منتصف القرن الثامن الهجرى (٧٥١هـ) ، والمقرئى توفى فى آخر النصف الأول من القرن التاسع الهجرى (٨٤٥هـ) وكان أثر كتاب مدارج السالكين لابن القيم واضحا كلَّ الوضوح فى كتاب «تجريد التوحيد المفيد» كما بيَّناه فى المقدمة . (طاء) .

لَهُمْ فَزِينُوا لَهُمْ حَلَقَ رُؤُوسِهِمْ لَهُمْ كَمَا زِينُوا لَهُمُ السُّجُودَ لَهُمْ وَسَمَوْهُ
بغير اسمه وقالوا: هُوَ وَضَعَ الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ
السُّجُودَ لِلَّهِ هُوَ وَضَعَ الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَزِينُوا لَهُمْ أَنْ
يَنْذَرُوا لَهُمْ وَيَتُوبُوا لَهُمْ وَيَحْلِفُوا بِأَسْمَائِهِمْ.

وهذا هو اتِّخَاذُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ
يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وَلَا
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ وَأَشْرَفُ الْعُبُودِيَّةِ عُبُودِيَّةُ الصَّلَاةِ وَقَدْ تَقَاسَمَهَا الشُّيُوخُ وَالتَّشَبُّهُونَ
بِالْعُلَمَاءِ وَالْجَبَابِرَةُ فَأَخَذَ الشُّيُوخُ مِنْهَا أَشْرَفَ مَا فِيهَا وَهُوَ السُّجُودُ ، وَأَخَذَ
التَّشَبُّهُونَ بِالْعُلَمَاءِ الرُّكُوعَ ، فَإِذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا رَكَعَ لَهُ كَمَا يَرْكَعُ
الْمُصَلِّي لِرَبِّهِ سِوَاهُ ، وَأَخَذَ الْجَبَابِرَةُ مِنْهُمْ الْقِيَامَ فَيَقُومُ الْأَحْرَارُ وَالْعَبِيدُ
عَلَى رُؤُوسِهِمْ ، عُبُودِيَّةً لَهُمْ وَهُمْ جُلُوسٌ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ
هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ عَلَى التَّفْصِيلِ ، فَتَعَاطِيهَا مُخَالَفَةٌ صَرِيحَةٌ لَهُ. فَنَهَى
عَنِ السُّجُودِ لغيرِ اللَّهِ وَقَالَ «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ» ، وَأَنْكَرَ عَلَى
مُعَاذٍ لَمَّا سَجَدَ لَهُ وَقَالَ «مَه» ﴿٢﴾ ، وَتَحْرِيمُ هَذَا مَعْلُومٌ مِنْ دِينِهِ ضَرُورَةٌ
وَتَجْوِيزٌ مِنْ جَوَازِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ مَرَاغِمَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَبْلَغِ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ.
فَإِذَا جَوَّزَ هَذَا الْمَشْرُكُ هَذَا النُّوعَ الْيَسِيرَ فَقَدْ جَوَّزَ عُبُودِيَّةَ غَيْرِ اللَّهِ ، وَقَدْ
صَحَّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: «الرَّجُلُ يَلْقَى أَخَاهُ ، أَيْنَحْنِي لَهُ؟ قَالَ: لَا ، قَالَ ، أَيْلَزَمَهُ
وَيَقْبَلُهُ؟ قَالَ: لَا ، قِيلَ ، أَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَأَيْضًا فَلَا نَحْنَاءُ عِنْدَ
التَّحِيَّةِ سَجُودٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ﴿٢﴾ أَيْ

﴿٢﴾ «مه» اسم فعل أمر، بمعنى (كف عن هذا).

(١) آل عمران: ٧٩ و ٨٠

(٢) البقرة: ٥٨

مُنَحْنِينَ ، وَإِلَّا ، فلا يمكنُ الدخولُ على الجِباةِ ، وصَحَّ عَنْهُ ﷺ النهيُ
عن القيامِ وهو جالسٌ كَمَا يُعْظَمُ الأعاجِمُ بعضها بعضاً^(١) ، حتى مَنَعَ من
ذلك في الصلاة وأمرهم إذا صَلَّى جالساً أن يصلُّوا جُلُوساً وهم أصِحَّاءُ
لَا عُدْرَ لَهُمْ لئَلَّا يَقُومُوا على رَأْسِهِ وَهُوَ جالسٌ^(٢) مع أن قيامهم لله فكيف
إذا كان القيامُ تعظيماً وعبوديةً لغيره سبحانه وتعالى .

والمقصودُ أن النفوسَ الجاهلةَ الضَّالَّةَ أسقطتْ عبوديةَ الله سبحانه وتعالى
وأشركت فيها مَنْ تُعْظَمُهُ مِنَ الْخَلْقِ فسجدتْ لغيرِ الله ، وركعتْ له ، وقامت
بين يديه قيامَ الصلاة ، وحلفتْ بغيرِهِ ، ونذرتْ لغيرِهِ ، وحلقتْ لغيرِهِ ،
وذبحتْ لغيرِهِ ، وطافتْ بغيرِ بيته ، وعظمتْه بالحُبِّ والخوفِ والرجاءِ
والطاعةِ كَمَا يُعْظَمُ الخالقُ ، بل أَشَدُّ ، وَسَوَتْ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُهُ مِنَ المخلوقين
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

هؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل وهم الذين برئهم يعدلون وهم الذين
يقولون وهم في النار مع آلهتهم يختصمون ﴿ تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اِذْ
نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) وهم الذين قال فيهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ
مِن دُونِ اللّٰهِ اُنْدَادًا يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ ﴾^(٤) وهذا

(١) الحديث رواه أبو داود وابن ماجة: قال الحافظ عبد العظيم المنذرى وإسناده حسن أبو
غالب فيه واسمه حזור ويقال نافع ويقال سعيد بن الحذور فيه كلام طويل ذكرته في
مختصر السنن وغيره والغالب عليه التوثيق وقد صحح له الترمذى وغيره. ١٠٠ هـ. ورواه
أيضا الترمذى في الشماثل، وفي مشروعية القيام للناس خلاف والصحيح التفصيل
والجمع بين الأحاديث. وقد ألف الإمام النووى فى ذلك رسالة وذكرها صاحب
المدخل فى كتابه وتعقبه فى كثير منها ورد كلامه فى جواز القيام فعلبك بمطالعتة، فإنه ينيك.
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبي الزبير عن جابر «أَنَّهُمْ لَمَّا صَلَّوْا خَلْفَهُ قَعَدُوا،
قَالَ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: إِنْ كِدْتُمْ أَنْفًا تَفْعَلُونَ فِعَلْ فَارِسَ وَالرُّومَ ، يَقُومُونَ عَلَى مَلُوكِهِمْ
وَهُمْ قَعُودٌ، فَلَا تَفْعَلُوا»

(٤) البقرة: ١٦٥

(٣) الشعراء: ٨٧، ٨٩

كلُّهُ من الشُّركِ واللَّهِ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ .
فهذا فصلٌ معترضٌ فى هذِهِ فى حلقِ الرأسِ لعلَّهُ أهمُّ مما قصد الكلام
فيه ، واللَّهُ أعلم .



كان الفراغ من إعداد هذا الكتاب للطباعة بعد ضَبْطِ كَلِمَاتِهِ ، والتعليق عليه ،
ووضع العناوين الجزئية الفاصلة بين كل فكرة وأخرى ، وتعيين أرقام الآيات
وسورها وتصحيح ماسها عنه طابعوه من قبل ، كان الفراغ من ذلك فى شهر صفر
من عام ١٤١٤ من الهجرة (يوليو عام ١٩٩٣ من الميلاد) بمنزلى بمدينة جدة العامة
بإذن الله ، وسيلى ذلك فصلٌ جديدٌ لابنِ قَيِّمِ الجوزية بعنوان «عِبَادَةٌ وَاسْتِعَانَةٌ» ،
اخترته من ملخص لكتابه «مدارج السالكين» .

والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

أحمد بن محمد طاحون

تنبيه :

لفظ العبارة المخدوفة من السطر (١٢) صفحة (٥١) بعد قوله :
«تقرب من الإسلام والشرائع»

عبادة واستعانة

ما يخص من كتاب مدارج السالكين للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية
المتوفى عام ٧٥١ من الهجرة

فصلٌ مُلَخَّصٌ من كتاب «مدارج السالكين» للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية
المتوفى عام ٧٥١ من الهجرة.

اخترتُ هذا الفصل من كتاب «تهذيب مدارج السالكين» وألحقته بهذه الطبعة الجديدة
لرسالة الإمام المقرئ ، ليتضح للقارئ تأثير الإمام ابن قيم الجوزية فيمن جاء بعده
من العلماء ، كما تأثر هو نفسه في ترتيب كتابه «مدارج السالكين» ، وفي منهجه
العام فيه بكتاب «منازل السائرين» لمؤلفه شيخ الإسلام «أبي إسماعيل عبد الله بن
محمد الأنصاري الهروي الحنبلي الصوفي» ، المتوفى عام ٤٨١ من الهجرة.

وقد صحح الإمام ابن قيم الجوزية ما وقع فيه الهروي من أخطاء وأوهام ، فجاء
كتاب «مدارج السالكين» في غاية الدقة والثراء .
وإنَّ الكمالَ لله وحده والعصمة لأتبيائه ورسله .

ابن قيم الجوزية :

كان أبوه قيما على مدرسة «الجوزية» بدمشق أما اسمه فهو : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعى ثم الدمشقى الحنبلى .

ولد سنة ٦٩١ من الهجرة وتوفى سنة ٧٥١ وقد نشأ فى بيت علم وفضل ، وأخذ العلم عن كبار علماء عصره ، تصدى للإقراء والإفتاء سنين ، وانتفع الناس به ، وكان مشهودا له بالعلم والورع ، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف متقيدا بالأدلة الصحيحة ، معجبا بالعمل بها ، صادعا بالحق لا يحابى فيه أحداً وقد صنف فى الفقه والأصول والسير والتاريخ وعلوم الحديث ، وكان لغويا نحويا ، أدبيا ، جاء فى كتبه بكل رائع وجميل وصحيح ونافع جزاه الله عنا خير الجزاء .



أبو إسماعيل الهروى:

هو أبو إسماعيل : عبد الله بن محمد بن على بن منصور بن متّ الأنصارى الهروى مصنف كتاب «ذم الكلام» وشيخ خراسان من ذرية أبى أيوب الأنصارى الصحابى الجليل رضى الله عنه . ولد فى سنة خمس أو ست وتسعين وثلاثمائة «أواخر القرن الرابع من الهجرة» وسمع من جميع علماء عصره ، وقال عنه محمد ابن طاهر : سمعته يقول : إذا ذكرت التفسير ، فلأنا أذكره من مائة وسبعة تفاسير وسمعته ينشد على المنبر .

أنا حنبلى ما حييت وإن أمت فوصيتى للناس أن يتحنلوا

وكتابه «منازل السائرین» أطال فيه النفس ، وفيه أشياء مطربة عظيمة الفائدة ، وأشياء مشكله ، وقد حققه الشيخ محمد حامد الفقى مع شرحه «مدارج السالكين» للعلامة ابن قيم الجوزية الذى تعقب فى شرحه الأشياء المشككة التى وردت فى ثانيا كتاب «منازل السائرین» وانتقدها ابن القيم انتقادا جيدا رصينا كما هو دأبه رحمه الله فى كل تواليفه ، وقد أزال فى شرحه كل لبس وإشكال مما جعل المداارج عظيم الفائدة عالى الشأن بين الكتب القيمة الرفيعة المستوى .

وتوفى الهروى رحمه الله عام ٤٨١ من الهجرة

عِبَادَةٌ وَاسْتِعَانَةٌ

وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، وَالْكَتُبِ وَالشَّرَائِعِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، انْتَهَى
إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ. *

وَهُمَا الْكَلِمَتَانِ الْمَقْسُومَتَانِ بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَ عَبْدِهِ نَصْفَيْنِ ، فَنَصْفُهُمَا لَهُ
تَعَالَى ، وَهُوَ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» ، وَنَصْفُهُمَا لِعَبْدِهِ ، وَهُوَ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

فِي مَعْنَى الْعِبَادَةِ:

و«الْعِبَادَةُ» تَجَمُّعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذِّلِّ وَالْخُضُوعِ ، وَالْعَرَبُ
تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ ، أَيْ: مُذَلَّلٌ ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ ، فَمَنْ
أَحْبَبْتُهُ ، وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلا
مَحَبَّةٍ ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ ، حَتَّى تَكُونَ مُحِبًا خَاضِعًا ، وَمَنْ هَاهُنَا ، كَانَ
الْمُنْكَرُونَ مَحَبَّةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ مُنْكَرِينَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ ، وَالْمُنْكَرُونَ لَكُونِهِ
مَحْبُوبًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ وَوَجْهُهُ الْأَعْلَى نِهَايَةُ بُغْيَتِهِمْ: مُنْكَرِينَ
لَكُونِهِ إِلَهًا ، وَإِنْ أَقْرَأُوا بِكُونِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ ، فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ
وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ ، الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ
عَنِ الشِّرْكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٧]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾

[الزمر: ٣٨]

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِلَى قَوْلِهِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾

[المؤمنون: ٨٤: ٨٩]

وَلِهَذَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِهِ عَلَى تَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ ،

* إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ: يَشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فى معنى الاستعانة:

و«الاستعانة» تجمعُ أصليْن: الثِّقَةُ بِاللَّهِ والاعْتِمَادُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَتَّقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِى أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ ، وَلَعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ فَيَحْتَاجُ إِلَى اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ .

فى معنى التوكّل:

و«التَّوَكَّلُ» معنى يَلْتَمِسُ مِنْ أَصْلَيْنِ: مِنَ الثِّقَةِ ، وَالاعْتِمَادِ ، وَهُوَ حَقِيقَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكَّلُ ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِى الْقُرْآنِ فِى عِدَّةِ مَوَاضِعَ ، قُرْنَ بَيْنَهُمَا فِيهَا ، هَذَا أَحَدُهَا .
الثانى: قَوْلُ شُعَيْبٍ ﴿وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

[هود : ٨٨]

الثالث: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾

[هود: ١٢٣]

الرابع: قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

[الْمُنْتَحَنَةُ: ٤]

الخامس: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا

[المزمل: ٨، ٩]

السادس: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

[الرعد: ٣٠]

مَتَابُ﴾

فَهَذِهِ سِتَّةُ مَوَاضِعَ يَجْمَعُ فِيهَا بَيْنَ الْأَصْلَيْنِ ، وَهُمَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» فى الفاتحة ، من باب تقديم الغايات على الوسائل ، إذ «العبادة» غاية العباد التى خلُقوا لها ، و«الاستعانة» وسيلة إليها ، ولأنَّ «إياك نعبد» متعلّق بالوحيّته واسمه «الله» و «إياك نستعين» متعلّق برُبوبيّته واسمه «الرب» فقدّم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» على «الرب» فى أول السورة ، لأنَّ «إياك نعبد» قِسْمٌ * الربُّ ، فكان من الشطر الأول ، الذى هو ثناء على الله تعالى ، لكونه أولى به ، و«إياك نستعين» قِسْمُ العبد ، فكان من الشطر الذى له ، وهو «اهدنا الصراطَ المُستقيم» إلى آخر السورة.

ولأنَّ «الاستعانة» جزءٌ من «العبادة» من غير عكس ، ولأنَّ «الاستعانة» طلبٌ منه ، و «العبادة» طلبٌ له .

ولأنَّ العبادة لا تكون إلّا من مُخلصٍ ، و«الاستعانة» تكون من مُخلصٍ ومن غير مُخلصٍ .

ولأنَّ «العبادة» حقّه * الذى أوجبه عليك ، و«الاستعانة» طلبُ العون على العبادة ، وهو بيانُ صدّقته التى تصدّق بها عليك ، وأداءُ حقّه أهمُّ من التعرّض لصدّقته .

ولأنَّ «العبادة» شكرُ نعمته عليك ، والله يحبُّ أن يُشكرَ ، و«الإعانة» فعلُهُ بكَ وتوفيقُهُ لكَ ، فإذا التزمت عبوديّته ، ودخلتَ تحتَ رِقِّها أعانَكَ عليها ، فكان التزامها والدُخولُ تحتَ رِقِّها سببًا لنيلِ الإعانة وكلما كان العبدُ أتمَّ عبوديّةً كانت الإعانة من الله له أعظمَ .

و«العبوديّة» محفوفةٌ بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ،

(*) القِسْمُ بكسر القاف وسكون السين معناه فى اللغة الحظّ والنصيب من الخير .

(**) حقّه : الهاء الضمير ترجع إلى لفظ الجلالة «الله» أى : حق الله على عباده

ولإعانة بعدها على عبودية أخرى ، وهكذا أبداً ، حتى يقضى العبد نَحْبَهُ .
فهذه الأسرارُ يَتَبَيَّنُ بها حكمةُ تقديم «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» على «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» .

وأما تقديمُ المعبودِ والمُسْتَعَانِ على الفعلَيْنِ ، ففيه أدبُهُم مع الله بتقديمِ اسمه على فعلِهِم ، وفيه الاهتمامُ وشِدَّةُ العنايةِ به ، وفيه الإيذانُ بالاختصاصِ المُسَمَّى بالحَصْرِ ، فهو في قُوَّةٍ : لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ ، والحاكِمُ في ذلك ذوقُ العَرَبِيَّةِ والفقهُ فيها .

وتأملْ قولَهُ تعالى : ﴿وَأَيُّ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة : ٤٠] ، ﴿وَأَيُّ فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة : ٤١] . كيف تجدهُ في قُوَّةٍ : لا ترهبوا غيري ، ولا تتقوا سواي . وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ * ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * هو في قُوَّةٍ : لا نعبدُ غيرَكَ ، ولا نستعينُ بسواكَ . وكلُّ ذِي ذوقٍ سليمٍ يفهمُ هذا الاختصاصَ من عِلَّةِ السِّيَاقِ .

وفى إعادةِ «إِيَّاكَ» مرةً أخرى دلالةٌ على تَعَلُّقِ هذه الأمورِ بكلِّ واحدٍ من الفعلَيْنِ ، ففي إعادةِ الضميرِ من قُوَّةِ الاقتضاءِ لذلك ما ليس في حذفه فإذا قلتَ لِمَلِكٍ مثلاً : إِيَّاكَ أَحِبُّ ، وإِيَّاكَ أَخَافُ ، كان فيه من اختصاصِ الحبِ والخوفِ بذاته ، والاهتمامِ بذكرِهِ ، ما ليسَ في قولِكَ : إِيَّاكَ أَحِبُّ وَأَخَافُ .

نستعينُ باللهِ على عبادتِهِ :

إذا عَرَفْتَ هذا ، فَالنَّاسُ في هذَيْنِ الأصلَيْنِ وهُمَا العِبَادَةُ والاستِعَانَةُ أربعةُ أقسامٍ .

أَجَلُّهَا وَأَفْضَلُهَا : أَهْلُ العِبَادَةِ والاستِعَانَةِ باللهِ عليها ، فَعِبَادَةُ اللهِ غَايَةُ مرادِهِم ، وَطَلِبُهُم مِنْهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَيْهَا ، وَيُوفِّقَهُمَ لِلْقِيَامِ بِهَا .

ولهذا كان من أَفْضَلِ مَا يُسْأَلُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : الإِعَانَةُ عَلَى

مرضاته ، وهو الذى علَّمهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحَبِّهِ مَعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فَقَالَ «يَا مَعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّى لِأُحِبُّكَ ، فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ :
اللَّهُمَّ أَعْنِى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» (١).

فَأَنْفَعُ الدُّعَاءِ : طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ ، وَأَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ : إِسْعَافُهُ
بِهَذَا الْمَطْلُوبِ ، وَجَمِيعُ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مَدَارُهَا عَلَى هَذَا ، وَعَلَى دَفْعِ مَا يُضَادُّهُ
وَعَلَى تَكْمِيلِهِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ ، فَتَأَمَّلْهَا .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ : تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ :
فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِى الْفَاتِحَةِ فِى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

إِمْدَادُ الْكَافِرِ زِيَادَةُ حُجَّةٍ عَلَيْهِ :

وَمُقَابَلُ هَؤُلَاءِ :

الْقِسْمُ الثَّانِى : وَهُمْ الْمُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَالْإِسْتِعَانَةَ بِهِ ، فَلَا عِبَادَةَ
وَلَا إِسْتِعَانَةَ ، بَلْ إِنْ سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ وَاسْتَعَانَ بِهِ ، فَعَلَى حِظْوْظِهِ وَشَهْوَاتِهِ
لَا عَلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَحَقْقِهِ ، فَإِنَّهُ سَبِّحَانَهُ يَسْأَلُهُ مِنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ :
يَسْأَلُهُ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ ، وَيُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ . وَأَبْغَضُ خَلْقِهِ : عَدُوُّهُ
إِبْلِيسُ ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَأَلَ حَاجَةً ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، وَمَتَّعَهُ بِهَا ، وَلَكِنْ
لَمَّا لَمْ تَكُنْ عَوْنًا لَهُ عَلَى مَرْضَاتِهِ ، كَانَتْ زِيَادَةً لَهُ فِى شِقْوَتِهِ ، وَبُعْدَهُ عَنِ
اللَّهِ وَطَرْدِهِ عَنْهُ . وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى أَمْرٍ ، وَسَأَلَهُ إِيَّاهُ ، وَلَمْ
يَكُنْ عَوْنًا عَلَى طَاعَتِهِ ، كَانَ مُبْعَدًا لَهُ عَنْ مَرْضَاتِهِ ، قَاطِعًا لَهُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ .

وَلِيَتَأَمَّلِ الْعَاقِلُ هَذَا فِى نَفْسِهِ وَفِى غَيْرِهِ ، وَلِيَعْلَمْ أَنَّ إِجَابَةَ اللَّهِ لِسَائِلِهِ
لَيْسَتْ لِكِرَامَةِ السَّائِلِ عَلَيْهِ ، بَلْ يَسْأَلُهُ عَبْدُهُ الْحَاجَّةَ فَيَقْضِيهَا لَهُ ، وَفِيهَا هَلَاكُهُ

(١) صحيح رواه أبو داود (١٥٢٢) وأحمد ٢٤٥/٥ ، ٢٤٧ ، والحاكم ١٠/٢٧٣

وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبة له ، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً ، وهذا إنما يفعله بعبد الذي يريد كرامته ومحبة ، ويعامله بلطفه ، فيظن بجهله أن الله لا يحب ولا يكرمه ، ويراه يقضى حوائج غيره ، فيسئ ظنه بربه ، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به ، والمعصوم من عصمه الله ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا: حملته على الأقدار ، وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَاعٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ الْقَدَرَا
فَوَاللَّهِ لَوْ كَشَفَ عَنْ حَاصِلِهِ وَسِرِّهِ ، لَرَأَى هُنَاكَ مَعَاتِبَةَ الْقَدَرِ وَاتِّهَامَهُ
وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ مَا حِيلَتِي ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ
إِلَيَّ؟ وَالْعَاقِلُ خَصِمُ نَفْسِهِ ، وَالْجَاهِلُ خَصِمُ أَقْدَارِ رَبِّهِ .
فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيره وعاقبه مغيبةً عنك ، وإذا
لم تجد من سؤاله بدءاً فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم
بين يدي سؤالك الاستخارة ، ولا تكن استخارةً باللسان بلا معرفة ، بل
استخارةً من لا علم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اعتداء له إلى
تفاصيلها ، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه ،
هَلَكَ كُلُّ الْهَلَاكِ ، وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته ، وبلاغاً
إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته ، ولا
تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ، ولا منعه كل ما يمنعه
لهوان عبده عليه ، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده .
قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي

أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾

[الفجر: ١٥، ١٦]

أَيُّ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَتهُ وَنَعَّمْتُهُ وَخَوَّلْتُهُ ، فَقَدْ أَكْرَمْتُهُ ، وَمَا ذَاكَ لِكِرَامَتِهِ عَلَيَّ ، وَلَكِنَّهُ ابْتَلَاءُ مِنِّي ، وَامْتِحَانٌ لَّهُ ، أَيَشْكُرُنِي فَأُعْطِيهِ فَوْقَ ذَلِكَ ، أَمْ يَكْفُرُنِي فَأَسْلُبُهُ إِيَّاهُ ، وَأُخَوِّلُ فِيهِ غَيْرَهُ؟ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ابْتَلَيْتُهُ فَضَيَّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وَجَعَلْتُهُ بِقَدَرٍ لَا يَفْضُلُ عَنْهُ ، فَذَلِكَ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيَّ ، وَلَكِنَّهُ ابْتَلَاءٌ وَامْتِحَانٌ مِنِّي لَهُ ، أَيَصْبِرُ؟ فَأُعْطِيهِ أَضْعَافَ أَضْعَافٍ مَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ أَمْ يَتَسَخَّطُ؟ فَيَكُونُ حَظُّهُ السَّخَطَ.

فَرَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيَّ مِنْ ظَنٍّ أَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ إِكْرَامٌ ، وَأَنَّ الْفَقْرَ إِهَانَةٌ فَقَالَ: لَمْ أَبْتَلِ عَبْدِي بِالْغِنَى لِكِرَامَتِهِ عَلَيَّ ، وَلَمْ أَبْتَلِهِ بِالْفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيَّ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ لَا يَدُورَانِ عَلَى الْمَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُوسِّعُ عَلَى الْكَافِرِ لَا لِكِرَامَتِهِ ، وَيَقْتُرُّ عَلَى الْمُؤْمِنِ لَا لِإِهَانَتِهِ إِنَّمَا يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَيُهِينُ مَنْ يُهِينُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَمَعْصِيَتِهِ ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا ، وَهُوَ الْغِنَى الْحَمِيدُ.

فَعَادَتْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .
الْعِبَادَةُ بِلَا اسْتِعَانَةٍ : نَقْصٌ:

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مَنْ لَهُ نَوْعُ عِبَادَةٍ بِلَا اسْتِعَانَةٍ . وَهُوَ لَا نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْقَدَرِيَّةُ ، الْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ قَدْ فَعَلَ بِالْعَبْدِ جَمِيعَ مَقْدُورِهِ مِنَ الْإِلْطَافِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي مَقْدُورِهِ إِعَانَةٌ لَهُ عَلَى الْفَعْلِ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَعَانَهُ بِخَلْقِ الْأَلَاتِ وَسَلَامَتِهَا ، وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَتَمْكِينِهِ مِنَ الْفَعْلِ فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا إِعَانَةٌ مَقْدُورَةٌ يَسْأَلُهُ إِيَّاهَا ، بَلْ قَدْ سَاوَى بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ فِي الْإِعَانَةِ. فَأَعَانَ هَؤُلَاءِ كَمَا أَعَانَ هَؤُلَاءِ ، وَلَكِنَّ أَوْلِيَاءَهُ اخْتَارُوا

لنفوسِهِمُ الْإِيمَانَ ، وأعداءَهُ اختاروا لنفوسِهِمُ الْكُفْرَ ، من غير أن يكونَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَفَقَّ هَؤُلَاءِ بِتَوْفِيقِ زَائِدٍ ، أَوْجَبَ لَهُمُ الْإِيمَانَ ، وَخَذَلَ هَؤُلَاءِ بِأَمْرِ آخَرَ ، أَوْجَبَ لَهُمُ الْكُفْرَ ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمُ نَصِيبٌ مَنَقُوصٌ مِنَ الْعِبَادَةِ لَا اسْتِعَانَةَ مَعَهُ ، فَهُمْ مُوَكَّلُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، مُسَدِّدٌ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ الاسْتِعَانَةِ وَالتَّوْحِيدِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَكَذَّبَ بِقَدَرِهِ ، نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ.

النوعُ الثَّانِي: مَنْ لَهُمْ عِبَادَاتٌ وَأُورَادٌ ، وَلَكِنْ حَظُّهُمْ نَاقِصٌ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، لَمْ تَتَّسِعْ قُلُوبُهُمْ لِارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْقَدَرِ ، وَتَلَاشِيهَا فِي ضَمْنِهِ ، وَقِيَامِهَا بِهِ ، وَأَنَّهَا بَدُونِ الْقَدَرِ كَالْمَوَاتِ الَّذِي لَا تَأْثِيرَ لَهُ ، بَلْ كَالْعَدَمِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ ، وَأَنَّ الْقَدَرَ كَالرُّوحِ الْمُحَرِّكِ لَهَا ، وَالْمُعَوَّلَ عَلَى الْمُحَرِّكِ الْأَوَّلِ.

فَلَمْ تَنْفُذْ قُوَى بَصَائِرِهِمْ مِنَ الْمُتَحَرِّكِ إِلَى الْمُحَرِّكِ ، وَمِنَ السَّبَبِ إِلَى الْمُسَبَّبِ ، وَمِنَ الْآلَةِ إِلَى الْفَاعِلِ ، فَضَعُفَتْ عَزَائِمُهُمْ وَقَصُرَتْ هِمَمُهُمْ ، فَقَلَّ نَصِيبُهُمْ مِنْ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وَلَمْ يَجِدُوا ذَوْقَ التَّعَبُّدِ بِالتَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَإِنْ وَجَدُوا ذَوْقَهُ بِالْأُورَادِ وَالْوِظَائِفِ.

فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالنَّفُوذِ وَالتَّأْثِيرِ ، بِحَسَبِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ وَلَهُمْ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالضَّعْفِ وَالْمَهَانَةِ وَالْعِجْزِ بِحَسَبِ قَلَّةِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ وَلَوْ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ فِي إِزَالَةِ جَبَلٍ عَنْ مَكَانِهِ ، وَكَانَ مَأْمُورًا بِإِزَالَتِهِ ، لَا زَالَهُ.

تفسير لمعنى التوكّل والاستعانة:

فإن قلت: فما معنى التوكّل والاستعانة؟

قلت: هو حال القلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفريده بالخلق

والتدبير والضرر والنفع والعطاء والمنع ، وأنه ماشاء كان ، وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس ، فيوجب له هذا اعتمادا عليه ، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملى به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه .

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مملكان بهما ، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحسب همه على إنزال ما ينوبه بهما ، فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾

[الطلاق: ٣]

أى كافيه ، و«الحسب» الكافى ، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو : القسم الرابع : وهو من شهد تفرّد الله بالنفع والضرر ، وأنه ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه ، فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به ، فقضيت له ، وأسعف بها ، سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق ، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له ، فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ، ولا تستلزم الإسلام ، فضلا عن الولاية والقرب من الله ، فإن الملك والجاه والمال والحال مغطاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فمن استدلل بشئ من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ، ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ، فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه . فالحال من الدنيا . فهو كالمملك والمال ، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره ، ألحقه بالملوك

العادِلِينَ البرَّةَ ، وإِلَّا فَهُوَ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَمُبْعَدٌ لَهُ عَنِ اللَّهِ ، وَمُلْحَقٌ لَهُ بِالْمُلُوكِ الظَّالِمَةِ ، وَالْأَغْنِيَاءِ الْفَجَرَةِ .

مُتَابَعَةٌ وَإِخْلَاصٌ

إِذَا عُرِفَ هَذَا : فَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُتَحَقِّقًا بِ«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» إِلَّا بِأَصْلِينَ عَظِيمَيْنِ .
أَحَدُهُمَا : مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ .

وَالثَّانِي : الْإِخْلَاصُ لِلْمَعْبُودِ . فَهَذَا تَحْقِيقُ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» .

وَالنَّاسُ مُنْقَسِمُونَ بِحَسَبِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ أَيْضًا إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ .
الضَّرْبُ الْأَوَّلُ : أَهْلُ الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ وَالْمُتَابَعَةِ ، وَهُمْ أَهْلُ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» حَقِيقَةً . فَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا لِلَّهِ ، وَأَقْوَالُهُمْ لِلَّهِ ، وَعَطَاؤُهُمْ لِلَّهِ ، وَمَنْعُهُمْ لِلَّهِ وَحُبُّهُمْ لِلَّهِ ، وَبُغْضُهُمْ لِلَّهِ . فَمُعَامَلَتُهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لَوَجْهِ اللَّهِ وَحَدِّهِ ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ، وَلَا ابْتِغَاءَ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ ، وَلَا طَلَبَ الْمَحْمَدَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَلَا هَرَبًا مِنْ ذَمِّهِمْ ، بَلْ قَدْ عَدُّوا النَّاسَ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ، لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا . فَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ ، وَابْتِغَاءُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُمْ ، وَرَجَائِهِمْ لِلضَّرِّ وَالنَّفْعِ مِنْهُمْ : لَا يَكُونُ مِنْ عَارِفٍ بِهِمْ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ مِنْ جَاهِلٍ بِشَأْنِهِمْ وَجَاهِلٍ بِرَبِّهِ . فَمَنْ عَرَفَ النَّاسَ ، أَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَخْلَصَ لَهُ أَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ ، وَعَطَاهُ وَمَنْعَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ ، وَلَا يَعْمَلُ أَحَدٌ الْخَلْقَ دُونَ اللَّهِ إِلَّا لِيَجْهَلَ بِاللَّهِ ، وَجْهْلُهُ بِالْخَلْقِ ، وَإِلَّا فَإِذَا عَرَفَ اللَّهَ ، وَعَرَفَ النَّاسَ أَثَرَ مُعَامَلَةِ اللَّهِ عَلَى مُعَامَلَتِهِمْ .

وكَذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا وَعِبَادَتُهُمْ مُوَافِقَةٌ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَكَمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ . وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ عَامِلٍ سِوَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي بِلَا عِبَادَةٍ بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ لِأَجْلِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

[الملك : ٢]

وَجَعَلَ مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُخْتَبِرَهُمْ آيُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. قَالَ
الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: الْعَمَلُ الْحَسَنُ هُوَ أَخْلَصُهُ وَأَصَوْبُهُ ، قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ
مَا أَخْلَصُهُ وَأَصَوْبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا ، لَمْ
يُقْبَلْ ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا ، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا: لَمْ يُقْبَلْ ، حَتَّى يَكُونَ
خَالِصًا وَصَوَابًا ، وَالْخَالِصُ: مَا كَانَ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ: مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ.
وَهَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾
[النساء: ١٢٥]

فَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ ، عَلَى مُتَابَعَةِ أَمْرِهِ.
وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى عَامِلِهِ ، يَرُدُّ عَلَيْهِ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ هَبَاءً
مَنْثُورًا. وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ
عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (١) وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا اقْتِدَاءٍ ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَامِلَهُ مِنَ اللَّهِ
إِلَّا بَعْدًا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعْبَدُ بِأَمْرِهِ ، لَا بِالْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ.

الضَرْبُ الثَّانِي: مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ ، فَلَيْسَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لِشَرَعِ
وَلَيْسَ هُوَ خَالِصًا لِلْمَعْبُودِ ، كَأَعْمَالِ الْمُتَزَيِّنِينَ لِلنَّاسِ ، الْمُرَائِينَ لَهُمْ بِمَا لَمْ
يُشْرَعُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَهَؤُلَاءِ شَرَارُ الْخَلْقِ ، وَأَمَقَّتْهُمْ إِلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ
وَلَهُمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ
أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا أَقَلًا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالشُّرْكِ ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِاتِّبَاعِ
(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩٧) وَمُسْلِمٌ (١٧١٨) بَلَفْظُ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»
وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧١٨) بَلَفْظُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

السُّنَّةُ وَالْإِخْلَاصُ .

وهذا الضَّرْبُ يَكْثُرُ فِيمَنْ انْحَرَفَ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْفَقْرِ وَالْعِبَادَةِ
عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الْبِدْعَ وَالضَّلَالَاتِ ، وَالرِّيَاءَ وَالسَّمْعَةَ
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوهُ مِنَ الْإِتِّبَاعِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ ، فَهُمْ
أَهْلُ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ .

الضَّرْبُ الثَّلَاثُ : مَنْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي أَعْمَالِهِ ، لَكِنَّهَا عَلَى غَيْرِ مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ
كَجَهَالِ الْعِبَادِ ، وَالْمُتَسَبِّينَ إِلَى طَرِيقِ الزُّهْدِ وَالْفَقْرِ ، وَكُلِّ مَنْ عَبْدَ اللَّهَ
بِغَيْرِ أَمْرِهِ وَاعْتَقَدَ عِبَادَتَهُ هَذِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَهَذَا حَالُهُ ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ
سَمَاعَ الْمَكَاءِ وَالتَّصَدِيقَةَ قُرْبَةً ، وَأَنَّ الْخَلْوَةَ الَّتِي يَتْرُكُ فِيهَا الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ
قُرْبَةً ، وَأَنَّ مَوَاصِلَةَ صَوْمِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ قُرْبَةً ، وَأَنَّ صِيَامَ يَوْمِ فِطْرِ النَّاسِ
كُلُّهُمْ قُرْبَةً ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

الضَّرْبُ الرَّابِعُ : مَنْ أَعْمَلَهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ ، لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللَّهِ ، كَطَاعَةِ
الْمُرَائِينَ ، وَكَالرَّجُلِ يُقَاتِلُ رِيَاءً ، وَحَمِيَّةً وَشِجَاعَةً ، وَيَحْجُ لِيُقَالَ وَيَقْرَأَ
الْقُرْآنَ لِيُقَالَ ، فَهَؤُلَاءِ أَعْمَالُهُمْ ظَاهِرُهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا لَكِنَّهَا غَيْرُ
صَالِحَةٍ ، فَلَا تُقْبَلُ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

[البَيِّنَةُ : ٥]

فَكُلُّ أَحَدٍ لَمْ يُؤْمَرْ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ بِمَا أَمَرَ ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ ،
وَهُمْ أَهْلُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

المِيزَانُ الصَّحِيحُ لِأَفْضَلِيَةِ الْعِبَادَةِ

ثُمَّ أَهْلُ مَقَامِ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» لَهُمْ فِي أَفْضَلِ الْعِبَادَةِ وَأَنْفَعِهَا وَأَحَقَّهَا بِالْإِثَارِ
وَالتَّخْصِصِ أَرْبَعُ طُرُقٍ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ .

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ : عِنْدَهُمْ أَنْفَعُ الْعِبَادَاتِ وَأَفْضَلُهَا : أَشَقُّهَا عَلَى النَّفْسِ وَأَصْعَبُهَا .

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التَّعَبُّدِ .
 قالوا: والأجرُ على قَدَرِ الْمَشَقَّةِ . . ورووا حديثاً لا أصلَ له «أَفْضَلُ
 الْأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا» أَيُ أَصْعَبُهَا وَأَشَقُّهَا .

وهؤلاء : هُمُ أَهْلُ الْمُجَاهَدَاتِ وَالْجَوْرِ عَلَى النَّفُوسِ .
 قالوا: وَإِنَّمَا تَسْتَقِيمُ النَّفُوسُ بِذَلِكَ ، إِذْ طَبَعُهَا الْكَسَلُ وَالْمَهَانَةُ ، وَالْإِخْلَادُ
 إِلَى الْأَرْضِ ، فَلَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا بِرُكُوبِ الْأَهْوَالِ وَتَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ .
 الصَّنَفُ الثَّانِي: قالوا: أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ التَّجَرُّدُ ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا ،
 وَالتَّقَلُّلُ مِنْهَا غَايَةَ الْإِمْكَانِ ، وَاطِّرَاحُ الْاهْتِمَامِ بِهَا ، وَعَدَمُ الْاِكْتِرَافِ بِكُلِّ مَا هُوَ مِنْهَا .

ثُمَّ هَؤُلَاءِ قِسْمَانِ:

فَعَوَامُهُمْ: ظَنُّوا أَنَّ هَذَا غَايَةُ ، فَشَمَرُوا إِلَيْهِ ، وَعَمِلُوا عَلَيْهِ ، وَدَعَوْا
 النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَقَالُوا: هُوَ أَفْضَلُ مِنْ دَرَجَةِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ، فَرَأَوْا الزُّهْدَ
 فِي الدُّنْيَا غَايَةَ كُلِّ عِبَادَةٍ وَرَأْسَهَا .

وخواصُّهُمْ : رَأَوْا هَذَا مَقْصُودًا لِغَيْرِهِ ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ عَكُوفُ الْقَلْبِ
 عَلَى اللَّهِ ، وَجَمْعُ الْهِمَّةِ عَلَيْهِ ، وَتَفْرِيعُ الْقَلْبِ لِمَحَبَّتِهِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ ،
 وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ، وَالِاشْتِغَالُ بِمَرْضَاتِهِ ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ،
 وَالِاشْتِغَالُ بِمِرَاقَبَتِهِ دُونَ كُلِّ مَا فِيهِ تَفْرِيقٌ لِلْقَلْبِ وَتَشْتِيتٌ لَهُ .

الصَّنَفُ الثَّالِثُ: رَأَوْا أَنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَاتِ وَأَفْضَلَهَا: مَا كَانَ فِيهِ نَفْعٌ مُتَعَدِّ
 فَرَأَوْهُ أَفْضَلَ مِنْ ذِي النَّفْعِ الْقَاصِرِ ، فَرَأَوْا خِدْمَةَ الْفُقَرَاءِ ، وَالِاشْتِغَالَ بِمَصَالِحِ
 النَّاسِ ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ ، وَمُسَاعَدَتِهِمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ أَفْضَلَ ،
 فَتَصَدَّقُوا لَهُ ، وَعَمِلُوا عَلَيْهِ ، وَاحْتَجَّجُوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «الْخُلُقُ
 كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحْبَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ» رَوَاهُ أَبُو يَعْنَى (١) .

(١) ضَعِيفٌ جَدًّا وَرَوَاهُ الْبِزَارُ (١٩٤٩) وَابِيهَقِيُّ فِي «الشَّعْبِ» عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ =

واحتجوا بأنَّ عملَ العابدِ قاصرٌ على نفسه ، وعملَ النَّفَّاعِ مُتَعَدٌّ إلى الغيرِ ، وأينَ أحدهما مِنَ الآخرِ !!

قالوا: وَلِهَذَا كَانَ فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .
قالوا: وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
«لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(١) وهذا التفضيلُ
إِنَّمَا هُوَ لِلنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي . واحتجوا بقوله ﷺ : «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ
مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ ، مَنْ غَيْرَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ»^(٢) .
واحتجوا بأنَّ صَاحِبَ الْعِبَادَةِ إِذَا مَاتَ ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وَصَاحِبُ النَّفْعِ
لَا يَنْقُطِعُ عَمَلُهُ ، مَا دَامَ نَفْعُهُ الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ .

واحتجوا بأنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا بُعِثُوا بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ وَهِدَايَتِهِمْ ،
وَنَفْعِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، لَمْ يُبْعَثُوا بِالْخُلُوتِ وَالْإِنْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ
وَالْتَرَهَبِ ، وَلِهَذَا أَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَوْلَئِكَ النَّفَرِ الَّذِينَ هَمُّوا بِالْإِنْقِطَاعِ
لِلتَّعَبُدِ ، وَتَرَكَ مُخَالَطَةَ النَّاسِ .

الصَّنْفُ الرَّابِعُ: قالوا إِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ: الْعَمَلُ عَلَى مَرْضَاةِ الرَّبِّ فِي
كُلِّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ مُقْتَضِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوُظِيفَتُهُ ، فَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ فِي
وَقْتِ الْجِهَادِ: الْجِهَادُ ، وَإِنْ أَلَّ إِلَى تَرْكِ الْأَوْرَادِ ، مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ ، وَصِيَامِ

= في «المجمع» ١٩١/٨ وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك، ورواه الطبراني في
«الكبير» والأوسط» والدليمي، قال الهيثمي: وفيه عمير، وهو ابن هارون القرشي،
وهو متروك أيضا، وانظر «فيض القدير» ٥٠٥/٣ ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد
الزهد عن الحسن مرسلا بلفظ «أحب العباد إلى الله أنفسهم لعياله» قال المناوي:
إسناده ضعيف، لكن شواهد كثيرة

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦) وأحمد ٣٣٣/٥ عن سهل بن سعد.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦) عن أبي هريرة.

النهار ، بلْ وَمِنْ تَرْكِ إِمْتَامِ صَلَاةِ الْفَرَضِ ، كما فى حالةِ الْأَمْنِ .
وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ حُضُورِ الضَّيْفِ مثلاً : الْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَالِاشْتِغَالُ بِهِ
عَنِ الْوَرْدِ الْمُسْتَحَبِّ ، وَكَذَلِكَ فى أدَاءِ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَالْأَهْلِ .
وَالْأَفْضَلُ فى أَوْقَاتِ السَّحَرِ : الْإِشْغَالُ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ ، وَالِدُّعَاءُ
وَالذِّكْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ .

وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ اسْتِرْشَادِ الطَّالِبِ ، وَتَعْلِيمِ الْجَاهِلِ : الْإِقْبَالُ عَلَى
تَعْلِيمِهِ ، وَالِاشْتِغَالُ بِهِ .

وَالْأَفْضَلُ فى أَوْقَاتِ الْأَذَانِ : تَرْكُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ وَرْدِهِ ، وَالِاشْتِغَالُ
بِإِجَابَةِ الْمُؤَذِّنِ .

وَالْأَفْضَلُ فى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ : الْجِدُّ وَالنُّصْحُ فى إِيقَاعِهَا عَلَى
أَكْمَلِ الْوُجُوهِ ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا فى أَوَّلِ الْوَقْتِ ، وَالْخُرُوجُ إِلَى الْجَامِعِ ،
وَإِنْ بَعْدَ كَانَ أَفْضَلَ .

وَالْأَفْضَلُ فى أَوْقَاتِ ضَرُورَةِ الْمَحْتَاجِ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ بِالْجَاهِ ، أَوِ الْبَدَنِ ،
أَوِ الْمَالِ : الْإِشْغَالُ بِمُسَاعَدَتِهِ ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ ، وَإِثَارُ ذَلِكَ عَلَى أَوْرَادِكَ وَخُلُوتِكَ .
وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ : جَمْعُ الْقَلْبِ وَالْهَمَةُ عَلَى تَدْبِيرِهِ وَتَفْهَمِهِ
حَتَّى كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخَاطِبُكَ بِهِ ، فَتَجْمَعُ قَلْبَكَ عَلَى فَهْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ ،
وَالْعَزْمُ عَلَى تَنْفِيزِ أَوْامِرِهِ ، أَعْظَمَ مِنْ جَمْعِيَّةِ قَلْبٍ مِنْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ
السُّلْطَانِ عَلَى ذَلِكَ .

وَالْأَفْضَلُ فى وقتِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ : الْاجْتِهَادُ فى التَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ
وَالذِّكْرِ دُونَ الصَّوْمِ الْمُضْعَفِ عَنْ ذَلِكَ .

وَالْأَفْضَلُ فى أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ : الْإِكْثَارُ مِنَ التَّعَبُّدِ ، لِأَسِيْمَا
التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ غَيْرِ الْمُتَعَيِّنِ .

والأفضلُ في العَشرِ الأخيرِ من رَمَضانَ: لزُومُ المسجدِ فيه ، والخلوة والاعتكاف ، دونِ التصدُّى لمخالطة الناس ، والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضلُ من الإقبالِ على تَعليمِهِم العلمَ ، وإقرائِهِم القرآنَ ، عند كثير من العلماء .
والأفضلُ في وَقْتِ مَرَضِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ أو مَوْتِهِ: عِيادَتُهُ وحُضُورُ جنازته وتشييعه .

والأفضلُ في وقت نزولِ النوازلِ ، وأذاة الناسِ لك: أداءُ واجبِ الصبرِ مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإنَّ المؤمنَ الذي يُخالط الناسَ ليصبرَ على أذاهِمُ ، أفضلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخالطُهُمْ وَلَا يُؤذونَهُ .

والأفضلُ خلطتُهُمْ في الخيرِ ، فهي خيرٌ من اعتزالِهِمْ فيه ، واعتزالِهِمْ في الشرِّ ، فهو أفضلُ من خلطتِهِمْ فيه . فإن عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُمْ أزالَهُ أو قَلَّلَهُ ، فخلطتُهُمْ حينئذٍ أفضلُ من اعتزالِهِمْ .

فالأفضلُ في كل وقتٍ وحالٍ: إيثارُ مَرْضاةِ اللَّهِ في ذلكَ الوقتِ والحالِ ، والاشتغال بواجبِ ذلكَ الوقتِ ووظيفتهِ ومقتضاهُ .

وهؤلاء هم أهلُ التَّعبُدِ المطلقِ ، والأصنافِ قبلهم أهلُ التَّعبُدِ المقيدِ ، فمتى خرجَ أحدهمُ عن النوعِ الذي تعلق به من العبادة وفارقَهُ ، يرى نفسه كأنَّهُ قد نقصَ وتركَ عبادتَهُ ، فهو يَعْبُدُ اللَّهَ على وجهِ واحدٍ ، وصاحبُ التَّعبُدِ المطلقِ ، ليسَ له غرضٌ في تَعَبُّدٍ بَعِيْنِهِ يُؤثِّرُهُ على غيرِهِ ، بل لا يزالُ مُتَنَقِّلًا في منازلِ العبودية ، كلما رفعت له منزلة ، عمل على سيرِهِ إليها ، واشتغلَ بها حتى تلوحَ له منزلةٌ أخرى ، فهذا دأبُهُ في السيرِ حتى ينتهى سيرُهُ ، فإن رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رَأَيْتَ الْعِبَادَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رَأَيْتَ الْمُجَاهِدِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رَأَيْتَ الذَّاكِرِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رَأَيْتَ الْمُتَصَدِّقِينَ الْمُحْسِنِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ .

فهذا هو العبدُ المطلقُ ، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيدهُ القيود ، ولم يكن عمله على مُرادِ نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مُرادِ ربِّه ، ولو كانت راحةُ نفسه ولذتها فى سواه ، فهذا هو المُتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًا ، القائمُ بهما صدقًا ملبسه ماتهياً ، ومأكله ماتيسرًا ، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت وبوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكانُ ووجدَهُ خالياً ، لاتمَلكهُ إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولى عليه رسمٌ ، حرٌّ مُجردٌ ، دائرٌ مع الأمرِ حيث دارَ ، يدينُ بدينِ الأمرِ أنى توجهت ركائبه ، ويدورُ معه حيث استقلت مضاربه ، يأنسُ به كلُّ مُحقٍّ ، ويستوحشُ منه كلُّ مُبطلٍ ، كالغيثِ حيث وقعَ نفعَ ، وكالتخلة لا يسقط ورقُّها ، وكلُّها منفعةٌ حتى شوكتها ، وهو موضعُ الغلظةِ منه على المخالفين لأمرِ الله ، والغضبُ إذا انتهكت محارمُ الله ، فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلقٍ وصحبَ الناسَ بلا نفسٍ ، بل إذا كان مع الله ، عزلَ الخلائقَ عن البينِ وتخلَّى عنهم ، وإذا كان مع خلقه ، عزلَ نفسه من الوسطِ وتخلَّى عنها. فواهاً له! ما أغربه بينَ الناسِ! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظمَ أنسه بالله وفرحه به ، وطمانينته وسكونه إليه!! والله المستعانُ ، وعليه التكلانُ.

حرمانُ الجبريِّ من حلاوة العبادَةِ

ثمَّ للناسِ فى منفعةِ العبادَةِ وحِكمتها ومقصودِها طرقٌ أربعةٌ ، وهم فى ذلك أربعةٌ أصنافُ :

الصنفُ الأوَّلُ : الجبريَّة الذين يردُّون الأمرَ إلى محضِ المشيئةِ ، وصرفِ الإرادةِ ، فهؤلاء عندهم القيامُ بها ليس إلَّا لمجرد الأمرِ ، من غيرِ

أن تكون سببا لسعادة فى معاشٍ ولا معادٍ ، ولا سببا لنجاةٍ ، وإنما القيامُ بها لمجردِ الأمرِ ومحضِ المشيئةِ .

وهؤلاء لا يجدون حلاوةَ العبادَةِ ولا لذتها ، ولا يتنعمون بها ، وليست الصلاةُ قُرَّةَ أعينِهِمْ . وليست الأوامرُ سرورَ قلوبِهِمْ ، وغذاءَ أرواحِهِمْ وحياتِهِمْ ، ولهذا يُسمونها «تكاليف» أى : قد كُلفوا بها ، ولو سَمَّى مدعٍ لمحبة ملكٍ من الملوك أو غيره ما يأمُرُهُ به تكليفا ، وقال : إني إنما أفعله بكلفة : لم يعدَّهُ أحدٌ محبًّا له ، ولهذا أنكر هؤلاء - أو كثيرٌ منهم - محبةَ العبدِ لربِّه ، وقالوا : إنما يحب ثوابه ، وما يخلقه له من النعيم الذى يتمتعُ به ، لا أَنَّهُ يحبُّ ذاته ، فجعلوا المحبةَ لمخلوقه دونه . وحقيقة العبودية هى : كمالُ المحبةِ ، فأنكروا حقيقةَ العبودية ولُبَّها ، وحقيقةُ الإلهية : كونه مألوها ، محبوبا بغاية الحب ، المقرون بغاية الذلِّ والخضوع ، والإجلال والتعظيم ، فأنكروا كونه محبوبا ، وذلك إنكارٌ للإلهية ، وشيخ هؤلاء هو «الجعدُ بنُ درهم» الذى ضحى به خالد بن عبد الله القسرى فى يوم أضحى ، وقال : إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا وَلَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَإِنَّمَا كَانَ إِنكَارُهُ ، لِكَوْنِهِ تَعَالَى مُحْبُوبًا مُحِبًّا لَمْ يَنْكَرْ حَاجَةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَيْهِ ، التى هى الخلةُ عند الجهمية ، التى يشرك فيها جميعُ الخلائقِ ، فكلهم أخلاءُ الله عندهم .

وَبَعْضُ يَمْنُونُ إِسْلَامَهُمْ

الصنف الثانى : القدريةُ النفاةُ ، الذين يقولون إن العباداتِ شرعت

أثمنا لما يناله العبادُ من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجره الأجير . قالوا : ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً كقوله ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿النحل: ٣٢﴾ وقوله ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[النمل: ٩٠] وقوله ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوقِيكُمْ إِيَّاهَا»^(١) وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قالوا: وقد سمَّاهُ اللهُ سبحانه جزاءً وأجرًا وثوابًا، لأنه يثوبُ إلى العاملِ مِنْ عَمَلِهِ، أى: يرجعُ إليه مِنْهُ.

وإنما كان الجزاءُ ثوابًا والله أعلمُ لأنه يثوبُ إلى العاملِ، وترجعُ إليه ثمرةُ عمله فى الدنيا لينقدها ويحاسبَ نفسه عليها، ويعرفَ مافى عمله من نقصٍ وانحرافٍ عن الجادةِ ولا بدَّ بقدرِ ما وجدَ فى ثمرتهِ التى ثابت ورجعتُ إليه فى الدنيا، ككلِّ الشؤون والأعمال الدنيويَّة، من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها، فيتداركُ العبدُ النقصَ، ويتحرى الصراطَ المُستقيمَ فإذا لم ينقدِ عمله، ولم يُحاسبَ نفسه، لَمَّا يغلبُ عليه من الغفلةِ والجَهالةِ والتقليدِ الأعمى، كان ذلك قاطعاً لِعُدْرِهِ يومَ القيامةِ.

قالوا: ولولا ارتباطُهُ بالعمل، لم يكن لتسميته جزاء ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدلُّ عليه الوزنُ، فلولا تعلقُ الثوابِ والعقابِ بالأعمال واقتضاؤها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى، وقد قال تعالى ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿

[الأعراف: ٨: ٩]

وهاتان الطائفتانِ مُتقابلتانِ أشدَّ التَّقابلِ، وبينهُما أعظمُ التَّباينِ.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء البتة، وجوزت أن يُعَذَّبَ اللهُ مَنْ أَفْنَى عَمْرُهُ فى طَاعَتِهِ، وَيُنْعَمَ مَنْ أَفْنَى عَمْرُهُ فى مَعْصِيَتِهِ، وَكِلَاهُمَا

(١) أخرجهُ مسلم (٢٥٧٧)، وهو فى «المسند» ٥/١٥٤ و١٧٧ عن أبى ذرٍّ.

بالنسبة إليه سواء ، وجَوَزَتْ أَنْ يَرْفَعَ صَاحِبَ الْعَمَلِ الْقَلِيلِ عَلَى مَنْ هُوَ
أَعْظَمُ مِنْهُ عَمَلًا ، وَأَكْثَرُ وَأَفْضَلُ دَرَجَاتٍ ، وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ رَاجِعٌ إِلَى
مَحْضِ الْمَشِيئَةِ ، مِنْ غَيْرِ تَعْلِيلٍ وَلَا سَبَبٍ ، وَلَا حِكْمَةٍ تَقْتَضِي تَخْصِيصَ
هَذَا بِالثَّوَابِ ، وَهَذَا بِالْعِقَابِ .

وَالْقَدَرِيَّةُ أَوْجَبَتْ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ رِعَايَةَ الْأَصْلَحِ ، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ كُلَّهُ
بِمَحْضِ الْأَعْمَالِ وَثَمَنًا لَهَا ، وَأَنْ وَصُولَ الثَّوَابِ إِلَى الْعَبْدِ بِدُونِ عَمَلِهِ فِيهِ
تَنْغِيصٌ بِاحْتِمَالِ مَنَّةِ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ بِلَا ثَمَنٍ .

فَقَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، مَا أَجْهَلَهُمْ بِاللَّهِ ، وَأَغْرَهُمْ بِهِ ! جَعَلُوا تَفَضُّلَهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَى
عَبْدِهِ بِمَنْزِلَةِ صَدَقَةِ الْعَبْدِ عَلَى الْعَبْدِ ، حَتَّى قَالُوا : إِنْ إِعْطَاءُهُ مَا يُعْطِيهِ أَجْرَةٌ
عَلَى عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَى الْعَبْدِ وَأَطْيَبُ لَهُ مِنْ أَنْ يُعْطِيَهُ فَضْلًا مِنْهُ بِلَا عَمَلٍ .
فَقَابَلْتَهُمُ الْجَبْرِِيَّةُ أَشَدَّ الْمُقَابَلَةِ ، وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلْأَعْمَالِ تَأْثِيرًا فِي الْجَزَاءِ الْبَتَّةِ .

وَالطَّائِفَتَانِ جَائِرَتَانِ ، مَنْحَرِفَتَانِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، الَّذِي فَطَرَ اللَّهُ
عَلَيْهِ عِبَادَهُ ، وَجَاءَتْ بِهِ الرِّسْلُ ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَهُوَ أَنَّ الْأَعْمَالَ
أَسْبَابٌ مُوصِلَةٌ إِلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، مُقْتَضِيَةٌ لَهَا كَاقْتِضَاءِ سَائِرِ
الْأَسْبَابِ لِمُسَبِّبَاتِهَا ، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَمَنَّةٍ ،
وَصَدَقَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَنْ أَعَانَهُ عَلَيْهَا وَوَفَّقَهُ لَهَا ، وَخَلَقَ فِيهِ إِرَادَتَهَا وَالْقُدْرَةَ
عَلَيْهَا ، وَحَبَّبَهَا إِلَيْهِ ، وَزَيَّنَهَا فِي قَلْبِهِ وَكَرَّهَ إِلَيْهِ أَضْدَادَهَا . وَمَعَ هَذَا
فَلَيْسَتْ ثَمَنًا لِحَزَائِهِ وَثَوَابِهِ ، وَلَا هِيَ عَلَى قَدَرِهِ ، بَلْ غَايَتُهَا إِذَا بَدَلَ
الْعَبْدُ فِيهَا نُصْحَهُ وَجَهْدَهُ ، وَأَوْقَعَهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ أَنْ تَقَعَ شُكْرًا لَهُ
عَلَى بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ ، فَلَوْ طَالَبَهُ بِحَقِّهِ ، لَبَقِيَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى
تِلْكَ النِّعْمَةِ بَقِيَّةٌ لَمْ يَقُمْ بِشُكْرِهَا . فَلِذَلِكَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ
أَرْضِهِ لِعَذِّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ ، لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا

لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ، ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل ، كما قال «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» وفى لفظ: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ. وفى لفظ: لَنْ يُنْجَى أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١) وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما فى قوله ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]

ولا تنافى بينهما ، إذ توارد النفى والإثبات ليس على معنى واحد ، فالنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمنا وعوضا لها ، ردًا على القدرية المجوسية ، التى زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنّة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجابًا ، وحقّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة ، ويكفى فى جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه فى منته ، وأن من تمام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة ، اغتباطهم بمنّة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنّة ، وأعظمهم منه منزلة ، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنّة ، وأعظمهم إقراراً بها ، وذكرًا لها ، وشكرًا عليها ، ومحبة له لأجلها ، فهل يتقلب أحد قط إلا فى منته؟ ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]

وَاحْتِمَالُ مَنَّةِ الْمَخْلُوقِ : إِنَّمَا كَانَتْ نَقْصًا ، لِأَنَّهُ نَظِيرُهُ ، فَإِذَا مَنَّ عَلَيْهِ

(١) رواه البخارى (٦٤٦٣) ، (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦) وأحمد ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٤ ، وابن ماجة (٤٢٠١) عن أبى هريرة ، وفى الباب عن غيره من الصحابة .

استَعْلَى عليه ، ورأى المَمْنُون عليه نفسه دونه ، هذا مع أنه ليس فى كل مخلوق ، فَلَرسولِ الله ﷺ المِنَّةُ على أُمَّتِهِ ، وكان أصحابُهُ يقولون «الله ورسوله أَمَنٌ» ولا نقص فى منة الوالد على ولده ، ولا عار عليه فى احتمالها ، فكيف برب العالمين الذى إنما يتقلبُ الخلائقُ فى بحرِ مَنَّتِهِ عليهم ، ومحضِ صدقته عليهم ، بلا عَوَضٍ منهم أَلَبَّةً؟ وإن كانت أعمالُهُم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المَنَّانُ عليهم ، بأن وفقهم لتلك الأسبابِ وهداهم لها ، وأعانَهُم عليها وكَمَّلَها لهم ، وقَبَّلَها منهم على مافيهما؟ وهذا هو المعنى الذى أثبت به دخول الجنة فى قوله (بما كنتم تعملون).

فهذه بَاءُ السَّبَبِيَّةِ ، ردًّا على القدرية والجبرية ، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمالِ والجزاءِ ولا هى أسبابٌ لَهُ.

فالنصوصُ مُبْطَلَةٌ لقول هؤلاء كما هى مبطلَةٌ لقول أولئك ، وأدلةُ المعقول والفطرة أيضا تبطل قولَ الفريقين ، وتبين لمن له قلب ولُبٌّ مقدار قول أهل السنة ، وهم الفرقةُ الوَسَطُ المثبتون لعموم مشيئة الله ، وقدرته ، وخلقه العبادَ وأعمالَهُم ، ولحكمته التامة المتضمنة رِبْطَ الأسبابِ بِمُسَبِّبَاتِها وانعقادها بها شرعا وقدرًا وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكلُّ واحدةٍ من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل ، بل أنواعاً ، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]

تَفَلُّسُ

الصف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضةُ النفوسِ ، واستعدادها لفيضِ العلومِ عليها ، وخروجُ قُواها عن قُوى النفوسِ البهيميةِ فلو عَطَلَتْ عن العباداتِ لكانت من جنسِ نفوسِ السَّبَّاحِ والبَهَائِمِ ، والعباداتُ تخرجُها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقولِ المُجَرَّدَةِ ، فتصيرُ عالمةً قابِلَةً لانتقاصِ صُورِ العلومِ والمعارِفِ فيها .
المحبةُ أساسُ العبادة

وأما الصف الرابعُ: فهم الطائفةُ المحمديةُ الإبراهيميةُ ، أتباعُ الخليلين العارِفونَ باللهِ وحكمتهِ في أمرِهِ وشرعِهِ وخلقِهِ ، وأهلُ البصائرِ في عبادتِهِ ومراده بها .

فالطوائفُ الثلاثُ محجوبون عنهم بما عندهم من الشبهِ الباطلةِ ، والقواعدِ الفاسدةِ ، ما عندهم وراءَ ذلك شيءٌ ، قد فرحوا بما عندهم من المحالِ ، وقنعوا بما ألفوه من الخيالِ ، ولو علموا أن وراءَهُ ما هو أجلُّ منه وأعظمُ لما ارتضوا دونهُ ، ولكن عقولهم قَصُرَتْ عنه ، ولم يهتدوا إليه بنور النبوةِ ، ولم يشعروا به ، ليجتهدوا في طلبه ، ورأوا أن مامعهم خير من الجهلِ ، ورأوا تناقضَ مامعِ غيرِهِم وفسادهِ .

فتركَّب من هذه الأمورِ إيثارُ ما عندهم على ماسواه ، وهذه بليةُ الطوائفِ ، والمعافى مَنْ عافاهُ اللهُ .

فاعلم أن سرَّ العبوديةِ ، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها مَنْ عَرَفَ صِفاتِ الربِّ عزَّ وجلَّ ، ولم يُعْطَلْها ، وعرف معنى الإلهيةِ وحقيقتها ، ومعنى كونه إلهًا ، بل هو الإلهُ الحقُّ ، وكلُّ إلهٍ سواه فباطلٌ ، بل أبطل الباطلِ وأن حقيقةَ الإلهيةِ لا تنبغى إلا له ، وأن العبادةَ موجبَ إلهيتهِ وأثرها

ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالمقدرة ،
والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود .

فمن أنكر حقيقة الإلهية ، ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة
العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم
بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق ، والتي لها خلُقوا ، ولها أرسلت الرسلُ
وأنزلت الكتبُ ، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليفة
عنها: نسبة لله إلى مالا يليقُ به ، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرضَ
بالحق ، ولم يخلقها باطلاً ، ولم يخلق الإنسان عبثاً ، ولم يتركه سدى
مُهْملاً ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

أى لغير شيء ولا حكمة ولا لعبادتي ومجازاتي لكم ، وقد صرح
تعالى بهذا فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: ٥٦]

فالعبادة هي: الغاية التى خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها . قال
الله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]
أى: مُهْملاً ، قال الشافعى: لا يؤمر ولا ينهى ، وقال غيره: لا يثاب
ولا يعاقب ، والصحيح: الأمران ، فإن الثواب والعقاب متربان على
الأمر والنهي ، والأمر والنهى طلبُ العبادة وإرادتها ، وحقيقة العبادة
امتثالها ، وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

[الحجر: ٨٥]

وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجنّة: ٢٢]

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه .
فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال ، وبين ما دل عليه صريح الوحي
يجد أن أصحاب هذه الأقوال ماقدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته .
فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لكل ما لمحبه ، مع
الخنوع له والانقياد لأمره .

فأصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله
لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه
ورسله ، وملائكته وأوليائه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة
معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه .
وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها ، فهي إنما تتحقق
باتّباع أمره ، واجتناب نهيه ، فعند اتباع الأمر ، واجتناب النهي تتبين
حقيقة العبودية والمحبة . ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً عليها ، وشاهداً لمن
ادّعاه ، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾
فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبّتهم لله ، وشرطاً لمحبة الله لهم . ووجود
المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه فعلم انتفاء المحبة عند
انتفاء المتابعة . فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ، وانتفاء
المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم ، فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله
وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله .

ودلّ على أن متابعة الرسول ﷺ هي : حبّ الله ورسوله ، وطاعة
أمره . ولا يكفي ذلك في العبودية ، حتى يكون الله ورسوله أحبّ إلى

العبدِ مما سواهما . فلا يكون عنده شئٌ أحبُّ إليه من الله ورسوله . ومتى كان عنده شئٌ أحبُّ إليه منهما فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله لصاحبه البتَّة ، ولا يهديه الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرْبِضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

[التوبة : ٢٤]

فكل من قدَّم طاعةَ أحدٍ من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحدٍ منهم على قول الله ورسوله ، أو مرضاة أحدٍ منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحدٍ منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه ، أو معاملة أحدٍهم على معاملة الله ، فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه ، فهو كذبٌ منه وإخبارٌ بخلاف ما هو عليه ، وكذلك من قدم حكمَ أحدٍ على حكم الله ورسوله .

الأركان الأربعة للعبادة التامة

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ورضاه ، من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح . فالعبودية: اسمٌ جامعٌ لهذه المراتب الأربع ، فأصحابُ «إياك نعبد» حقاً هم أصحابُها .

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رُسُلِهِ . وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذبُّ عنه ،

وتبيينُ بطلانِ البدعِ المخالفةِ لهُ والقيامُ بذكره وتبليغِ أوامره .
وعملُ القلبِ : كالمحبةِ لهُ ، والتوكلُ عليه ، والإنابةِ إليه ، والخوفِ
منه ، والرجاءِ لهُ ، وإخلاصِ الدينِ له ، والصبر على أوامره ، وعن
نواهيه ، وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالة فيه ، والمعاداة فيه ،
والذلُّ له والخضوع ، والإخباتِ إليه ، والطَّمَأْنِينَةُ به ، وغير ذلك من
أعمال القلوب ، وعملُ الجوارحِ بدونها إِمَّا عَدِيمُ الْمُنْفَعَةِ أو قليلُ المنفعة .
وأعمالُ الجوارحِ : كالصلاةِ والجِهَادِ ونقلِ الأقدامِ إلى الجمعةِ
والجماعاتِ ، ومساعدةِ العاجزِ ، والإحسانِ إلى الخلقِ ونحو ذلك .
ف«إياك نعبدُ» التزامٌ لأحكامِ هذه الأربعةِ ، وإقرارٌ بها ، و«إياك
نستعينُ» طلبٌ للإعانةِ عليها والتوفيقِ لها ، و«اهدنا الصراطَ المستقيمَ»
متضمنٌ للتعريفِ بالأمرينِ على التفصيلِ ، وإلهامِ القيامِ بهما ، وسلوكِ
طريقِ السالكينِ إلى اللهِ بها .



انتهى فصل «عبادة واستعانة»

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل الإخلاص له سبحانه والمتابعة
لرسوله ﷺ ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما عَلمنا ، وأن
يزيدنا علماً بفضلِهِ وإحسانِهِ ، وأن يجعلَ هذا العملَ خالصاً لوجهه
الكريم ، وأن يسترنا في الدنيا والآخرة ، ويجعلنا من أهل رحمته
وعفوه إنه قريب مجيب الدعوات وصلى الله على نبيه الكريم وعلى آله
وأصحابه الطيبين الطاهرين .

فهرس تجريد التوحيد المفيد

الصفحة

- ٥ تقديم
- ٩ حقيقة التوحيد
- فى معنى الربّ
- فى معنى الإلهية
- ١٠ بيان أن للتوحيد قشرين
- وللتوحيد قشران
- لباب التوحيد وما يخرج عنه
- توحيد الربوبية لابدّ معه من توحيد الإلهية
- ١١ الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية
- من عدلَ بالله غيره فقد أشرك
- الرب والملك والإله
- ١٣ أدلّة الجمهور فى سحرِ النبى ﷺ وأدلّة مخالفيه
- أعظم عوذة فى القرآن
- ١٥ بيان أن شرك الأمم كلّهُ نوعان
- بيان للشرك فى العبادة
- التسوية فى المحبة والعبادة . . شرك لا يغفر
- الشرك فى الربوبية أخصّ شرك
- تفسير لتجريد التوحيد فى الأفعال والألفاظ والإرادات
- ١٩ النهى عن اتّخاذ القبورِ مساجدَ . . الخ .
- أقسام الناس فى زيارة القبور

السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ ٢١

- من الشرك الحلف بغير الله

- وصور من الإشراك نحذرها

- بيان لمعنى العبادة

تقسيمُ الشُّرْكِ إلى تعطيلٍ وغيره وأقسامه ٢٣

- توضيح للشرك فى الذات والأسماء والصفات والأفعال

- التعطيل أصل الشرك ومفسر له

- توضيح لشرك من جعل مع الله إلها آخر

من خصائصِ الإلهيةِ، الكَمالُ المُطلَقُ ٢٧

- ومن خصائص الإلهية

- من تشبه بالله قصمه الله

- التشبيه والتشبه هو حقيقة الشرك

- اتخاذ الشفعاء إساءة بالغة

عَدَمُ جَوَازِ الخُضُوعِ والتَّأَلُّ ٣٠

- أصل ضلال الطوائف الضالة

- عابد غير الله إنما يعبد الشيطان

تقسيمُ العبادةِ من حيث الاستعانة ٣٣

- أقسام الناس فى عبادة الله

- الإكرام والإهانة بالتقوى وعدمها

بيان معنى الاستعانة ٣٦

- تفسير لحقيقة الاستعانة عملاً

- الإخلاص والاتباع بهما النجاة

- شرار الخلق

- الغلو مع عدم المتابعة يضر العابد
- الرياء محبط للعبادات
- * صور من الغلو وأخذ الشريعة من جهة واحدة
- * أهل المشقة على النفوس
- * أهل الزهد فى متاع الدنيا
- * عوام الزهاد وخواصهم
- * من آفات الغلو فى أخذ الشريعة من جهة واحدة
- * أهل قضاء حوائج الناس والنفع المتعدى
- أفضلُ العِبَادَةِ، الاشتغالُ فى كلِّ وقتٍ بما يُناسبُهُ ٤٣
- أهل التعبد المطلق ومنهاجهم المتكامل
- مثال ودليل على سلامة وصحة منهج أهل التعبد المطلق
- ثناء على من يعطى كل ذى حق حقه
- للناسِ فى مَنْفَعَةِ العِبَادَةِ طُرُقٌ أربعٌ ٤٧
- المذاهب فى بيان حكمة العبادة وعلتها
- أولُ بدعةٍ ظَهَرَتْ فى الإسلام، ومذهبُ القَدَرِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ ٤٨
- أرباب رياضة النفوس وطرائقهم
- الطريق الصحيح عقيدة وعملا
- خلقتنا لعبادة الله
- فائدة : كلامُ ابنِ قَيِّمٍ الجوزِيَّةِ فى حَلَقِ الرَّأْسِ
- وتفصيل ذلكَ وفيهِ فوائد كثيرةٌ ٥٧

فهرس عبادة واستعانة

الصفحة

٦٣ عبادة واستعانة.
٦٣ فى معنى العبادة.
٦٤ فى معنى الاستعانة.
٦٤ فى معنى التوكل.
٦٦ نستعين بالله.
٦٧ إمداد الكافر: زيادة حجة عليه.
٦٩ العبادة بلا استعاذة نقص.
٧٢ متابعة وإخلاص.
٧٤ الميزان الصحيح لأفضلية العبادة.
٧٩ حرمان الجبرى من حلاوة العبادة.
٨٠ وبعضُ يَمْنُونُ إسلامهم.
٨٥ تفلسُّف.
٨٥ المحبة أساس العبادة.
٨٨ الأركان الأربعة للعبادة التامة.

والحمد لله أولاً وآخرًا